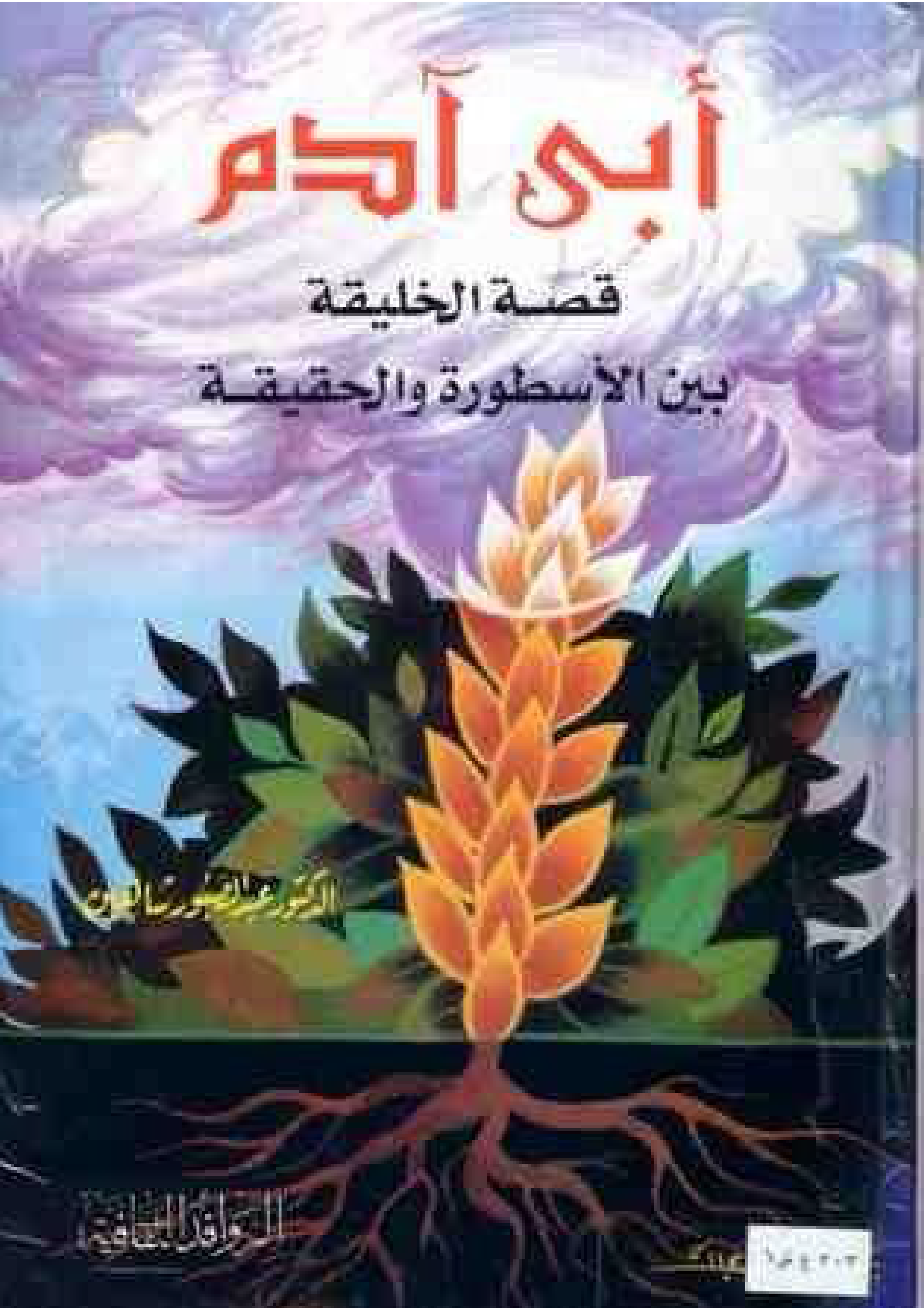

أبي آدم
قصة الخليقة
بين الأسطورة والحقيقة

الناشر: دار الإعتصام
سنة النشر :1998
نسخة حديثة : 2003
المقاس: 24×17 سم
عدد الصفحات: 192
أبي آدم

{{ مقدمة الطبعة الثانية }}

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (أبي آدم) أحدثت من الدوي مايحدثه سقوط صخرة ضخمة في بركة آسنة ، وانبعث من قلب البركة - أو المجتمع - أناس يتصدون للكتاب ، ولمؤلفه ، ظانين أن بوسعهم أن يخفتوا صوته ، ويخفوا أثره ، بالتشويش والتجريح ، وعلم الله أنهم لم يكونوا يملكون فكراً قادراً على إستيعاب مضمون الكتاب ، بل لقد يصدق في وصفهم ما ذكره المرحوم الكاتب الإسلامي مصطفى صادق الرافعي في وصف بعض خصومه ، بأنه ((يرى

السماء الصافية فيظن أنها قبة من الزجاج ، وينظر إلى النجمة البادية فيرى أنها بيضة من بيض الدجاج)) .
هكذا سمعنا خلال تلك الفترة جعجعة ، ولم نر طحناً ، وقد قذف وقع الصخرة في البركة بعضهم إلى ساحات القضاء في أربع زخات متواليات ، تولى كبرها رجل قانون ، ورجل تدين : (قضيتان في المحكمة الإبتدائية ، وأخريان أمام الإستئناف العادي والعالي ، فلم يلق الرجلان في قضاياهما سوى أحكام الرفض ، وكان سندنا المهم في تلك المواجهة الشرسة - ذات الأهداف الخفية - تقرير مستنير أصدره مجمع البحوث الإسلامية (وهو منشور في ملحق الكتاب) ، يقرر فيه المجمع أن الكتاب لا يحتوي على مايخالف القرآن الكريم أو السنة النبوية ، ولا ينكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو ثابتاً من ثوابت العقيدة ، وإنما هو إجتهاد توفرت شروطه في مؤلف الكتاب ، والمجمع قد يختلف معه في بعض النتائج التي توصل إليها . (أو كما قال) .
أما الكتاب فقد كان صخرة أردت بها أن أدق رأس الأفعى الإسرائيلية اللابدة في الثقافة الإسلامية القديمة ، ممثلة فيما سمي بالإسرائيليات ، وهي لا تعدو أن تكون أساطير خرافية تسللت إلى الفكر الإسلامي ، وإلى عقل الإنسان المسلم ، فاعتمدها أئمة من أهل التفسير ، ومن خلال تلك التفاسير سكنت في منطقة المسلمات من العقل المسلم ، وهي في الواقع أفعى إسرائيلية إعتنقها كثير من الرجال ، ممن لم يعملوا عقولهم في تحليل نصوص القرآن ، وممن لم يشعروا بالصدمة حين اتضحت من

الأرقام المسافات الزمنية الهائلة بين معطيات الخرافة ، وتقديرات العلم لآماد ما قبل التاريخ .. وأبعاد الحياة البشرية .. لقد خنقت الأفعى أفهامهم حين طوقت أعناقهم .

ولابد لنا أن نلتفت أمامنا الآن ، فنحن في مواجهة غارة إسرائيلية تحاول استخدام كل الوسائل لتخريب العقل المسلم المعاصر ، وهي لا تكف عن ترديد الأساطير ، في محاولة لزعزعة يقيننا بأنفسنا ، ويكفي أن يقف رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق مناحم بيجين - أمام الأهرامات الشامخة - ليردد بصوت عال مزاعمه الإسرائيلية ، بأن أجداده من بني إسرائيل هم الذين بنوا هذه الآثار الخالدة ، وهي عملية إغتصاب فاجرة ، يريد بها تجريد الأجيال المصرية من كل ميزة أو فضيلة ، هذا على الرغم من أن مناحم بيجين ، وكل من تجمعوا في فلسطين تحت شعار الصهيونية ، لا يملكون دليلاً واحداً على مايزعمونه إنجازاً لبني إسرائيل في مصر ، بل وأكثر من هذا لا يملكون دليلاً واحداً على إتصال نسبهم بإسرائيل أو بني إسرائيل ، فهم مجرد لملمة تناثرت في العالم قبل عشرات القرون ، وتجمعت في شكل مجموعات من الشذاذ ، لتحقيق خطة إستعمارية ، هي ضرب الإسلام بواسطة هذه الجيوش المرتزقة .

والعجيب أنهم يسطون على التراث الإسلامي ، ليؤلفوا ملحمة إسرائيلية تتكامل مع العهد القديم ، ليبنوا لأنفسهم وجوداً ثقافياً مؤثراً في العقل المسلم وتاريخة ، وهذا هو شأن الغارة المستوطنة الآن في فلسطين ، تحاول بما

تثير من غبار الإفتراءات والأكاذيب والإسرائيليات ، أن تلهينا عن مرارة واقعنا ، الذي ينبغي أن نحتشد لمقاومته بكل مانملك من قوة وعزم وإصرار ، وأن نرفض كل دعاوي السلام الزائفة ، التي ليست سوى وسائل يضحكون بها علينا ، وقد تبين لنا أن السلام الذي تعنيه إسرائيل ، ومن وراءها من أمريكان وأوروبيين ، هي عبارة عن هدنة بين حربين ، أولاهما سبقت ، والثانية آتية لا ريب فيها .

بل إننا نرى لزاماً علينا أن نجاهد تلك الغارة الإسرائيلية على قلب عالمنا العربي - في فلسطين ، نجاهدها مادياً وأدبياً ، نجاهدها إستيطاناً ، واحتلالاً وتأثيراً فكرياً وإعلامياً ، وسياسياً وإقتصادياً ... لابد أن نقضى على هؤلاء الغزاة قبل أن يقضوا علينا .. فقد جاءوا إلى بلادنا قاتلين أو مقتولين وسنكون نحن قاتليهم ، وسيكونون هم المقتولين - بمشيئة الله تعالى ، حتى نسوقهم إلى حصير جهنم .
لقد ابتلى العقل المسلم المعاصر من قبل مدرستين لهما وجود على الساحة ، ولهما ضجيج مزعج ، وقد آن أوان إخماد هذا الضجيج :
أما أولاهما فهي المدرسة الخرافية التي تتبنى الحكايات والإسرائيليات ، .. وأما ثانيهما فهي المدرسة الحرفية ، والتي تشبثت بالمأثور ، حتى ولو كان خرافياً ، وهي المدرسة التي ترفع السيف في وجه أي إجتهاد ، بدعوى الخروج على قواعد اللعبة السلفية ، والسلفية براء من

. كل أشكال الأساطير والخرافات

ولا مناص - إذا أردنا للإسلام أن يتبوأ مكانة في عالم الغد - أن يتم القضاء على هاتين المدرستين وآثارهما ، فهناك تحالف بين الحرفيين والخرافيين ، هو الذي يعوق حركة الإجتهاد الإسلامي المعاصر ، وكثيراً ما اختنقت آراء قيمة بإشاعة هذا الرعب ، مع أن الإسلام يشجع على الإجتهاد ، ويعد كل مجتهد بالأجر - مادام لا يخالف ثابتاً من ثوابت العقيدة ، وما دام لاينكر معلوماً من الدين بالضرورة ، فلنجتهد ، ولتذهب الخرافية . والحرفية إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم

== البـــــاب الأول ==

القصة بين العقل والنقل

{{ الفصــــل الأول }}

القصـــــة والإسرائيليات

قصة الخلق - كما أوردها القرآن الكريم - مليئة بالكثير من الأسرار الخفية ، والمعاني الظاهرة ، وقد تناولها

المفسرون والمنصفون من زاوية أو أخرى ، وتشابهت محاولات القدماء ، حين أخذ بعضهم عن بعض ، وحين جاء العصر الحديث بمعطياته الكثيرة في مجالات علم الأرض (الجيولوجيا) وعلم الإنسان (الأنتروبولوجيا) وعلوم الحياة ، والأحياء (البيولوجيا) وغيرها - تغيرت مفاهيم كثيرة ، وصار لزاماً على من يتصدى لكتابة شيء عن هذه القصة أن يأخذ في إعتباره ماكشف عنه العلم الحديث من حقائق نسبية ، وما قال به من نظريات ، حتى لايبدو متخلفاً عن موكب المعرفة المعاصرة ، وذلك على الرغم من أن الذين حاولوا الكتابة في هذه القصة حديثاً تعاملوا معها من منطلق المسلمات القديمة ، أو بمنطق اللا مساس والتوفيق والحذر .

إن هذه القصة كما وردت في القرآن الكريم تحتمل الكثير من التأويلات ، وهي حافلة بالإيماءات والإشارات ذات الدلالة التاريخية والزمنية ، ونحن هنا نستخدم المصطلح (التاريخ) بالمفهوم العام ، الذي يشمل كل ما مضى من الزمان ، محدداً كان أو غير محدد ، أي : التاريخ وما قبل التاريخ ، منذ كان الزمان .. بأمر الله التكويني (كن) فكان ... ولا معقب

إن نظرة القدماء إلى القصة قد تأثرت بالتصور الإسرائيلي لها ، وهو الوارد في سفر التكوين ، حيث يختزل الزمان كله إلى أقل من ثلاثة آلاف سنة تستغرق

عشرين جيلاً هم المسافة بين آدم وإبراهيم ، وقد
: إنقسمت سلسلة النسب إلى مجموعتين

. ((الأولى :بين آدم ونوح ((وهي عشرة أجيال
الثانية :بين نوح وإبراهيم ((وهي عشرة أجيال
.((أيضاً

مع ملاحظة أن سياق النص يوحي بأن الأجيال العشرة
الأولى قد بادت بسبب الطوفان ، ثم بدأت الإنسانية
جولتها الثانية من سلالة نوح ، الأب الثاني لها ، من
خلال أولاده الثلاثة : سام - وحام - ويافث (إرجع إلى
سفر التكوين - العهد القديم) ، ومع ملاحظة أخرى هي
: أن العمر الذي عاشه آدم - مثلاً - يصل في تقدير
العهد القديم إلى حدود الجيل التاسع تقريباً ، أي : قبل
. نوح بجيل واحد

لسنا هنا بصدد مناقشة معلومات العهد القديم ونقدها ،
فهي ذات طابع أسطوري غالباً ، ولا دليل على خطئها
أو صوابها ، سواء في الأسماء أو في الأرقام ، وإن
. كانت إلى الإحالة وعدم التصديق أقرب

ولكن الملاحظ أن أصحاب السير قد إعتبروها من
المسلمات ، فكرروها دون أدنى مناقشة ، أو حتى توقف
، وهذا هو إبن هشام في سيرته يذكر نسب النبي صلى
الله عليه وسلم ، فبصل به إلى آدم عبر سلسلة العهد

القديم ، فإذا بالنبي من الجيل الخمسين بعد آدم ، أي :
إن المدة من آدم إلى محمد - ثم إلى زمننا هذا - لا تذيد
على سبعة آلاف عام ، هي كل مامضى من عمر
البشرية ، وهو تقديري لا يليق مع التقديرات القائمة
. على الرؤية العلمية ، التي تقرب ولا تحدد
وحسبنا أن ننظر في تعليق محقق السيرة (الشيخ محمد
محيي الدين عبد الحميد) على ماذكره إبن هشام من
نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (روى عن
عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف مابين
.. (عدنان وإسماعيل
وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : (إنما ننتسب
إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندري ماهو) ، وقد صح
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال - لما بلغ
. عدنان : (كذب النسابون) مرتين أو ثلاثاً

وقد كره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه
إلى آدم ، من قِبَلِ أن هذا كله من باب التخرص
والظنون التي لايمكن أن يوثق بها ((سيرة ابن هشام
. (جـ 1 ص 1
ويلفت النظر في هذا التعليق الرواية عن ابن عباس : (
أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يُعرفون) .. أي
ثلاثين جيلاً ، تستغرق في المتوسط ثلاثة آلاف سنة
. على الأقل

فإذا لاجعنا إلى حساب التاريخ للمدة من إبراهيم حتى

الآن وجدناها تقترب من أربعة آلاف سنة وهي مدة تختلف تماماً مع ظنون النسابين ، الأمر الذي لا نعوِّل كثيراً على رواة الأنساب ، ولا على مصادرهم الكتابية

{{ الفصـــل الثاني }}

النظـــرة العلميـــــــة

******

أما النظرة العلمية إلى هذه المسألة فإنها تضعنا في قلب تصور آخر ، تحسب أبعاده بمئات الألوف .. بل بمئات الملايين من السنين ، وقد جاء في موسوعة الثقافة العلمية (صفحة 417 - 418) أسماء العصور الجيولوجية ، وآمادها الزمنية ، وهي عصور مرت بكوكب الأرض ، وقُسمت إلى حقب ، بحسب معالمها السائدة - كما قرر العلماء .

حقبة الحياة العتيقة :

حقبة ماقبل الكمبري = 71،125،000،000 سنة
حقبة الكمبري ..... = 500،000،000 سنة
حقبة الأردوفيشي .. = 375،000،000 سنة
حقبة السيلوري ......= 235،000،000 سنة
حقبة الديفوني ...... = 300،000،000 سنة
حقبة الكربوني .... = 250،000،000 سنة
حقبة البرمي ..... = 205،000،000 سنة

: حقبة الحياة المتوسطة

حقبة الطراياسي .... = 170 مليون سنة
حقبة الجوري ....= 135 مليون سنة
حقبة الطباشيري ... = 95 مليون سنة

: حقبة الحياة الحديثة

حقبة الباليوسيني ... = 80 مليون سنة
حقبة الأيوسين ..... = 50 مليون سنة
حقبة الأوليجوسين .. = 42 مليون سنة
حقبة الميوسين ...... = 25 مليون سنة
حقبة البليوسين ..... = 8 ملايين سنة
حقبة البلايستوسين .. = 500 ألف سنة

وكل هذه الحقب يعتبر وجود الإنسان فيها غامضاً ، ويمكن أن نتصور وجوده في شكل مخلوق فطري (خام) كالحيوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التي لا تحصى .

: حقبة الحياة الأخيرة

الدور الأخير ، دون تاريخ أو تقدير ، وهو دور إنحسار الجليد ، وقد شهد نباتات منزرعة ، وهي حقبة الإنسان

. الهوموسابينز أو الإنسان المفكر
ومن الواضح أننا طبقاً لهذه المعلومات أمام أزمان متطاولة تحسب كما نرى بعشرات المليارات من السنين ، فقد بدأت حقبة الحياة العتيقة بمرحلة ماقبل الكمبري ، أي : منذ واحد وسبعين مليار وخمسة وعشرين مليونا من السنين ، فهو أطول العصور أو الحقب وأقدمها على . الأطلاق في تقدير العلماء

وبدأت حقبة الحياة المتوسطة بالعصر الطراياسي ، منذ مائة وسبعين مليوناً من السنين ((من العلماء المعاصرين من لا يوافق على هذه التقديرات جملة . وتفصيلاً ، ويصف القائلين بها بأنهم مزيفون وكذابون (

وبدأت حقبة الحياة الحديثة مع بداية العصر الباليوسيني منذ ثمانين مليوناً من السنين ، وتأتي مرحلة حاسمة ضمن هذه الحقبة ، هذ حقبة الحياة في العصر البلايستوسيني ، وتقدر بدايتها منذ خمسمائة ألف سنة ، . طبقاً لمعلومات موسوعة الثقافة العلمية

فإذا رجعنا إلى كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) ، للمؤلفين : الأستاذ الدكتور زغلول النجار ، والأستاذ أحمد داود - وجدناه في (صفحة 146) يقرر أن فترات الجليد في عهد البلايستوسين دامت حوالي ستمائة ألف سنة ، في فترات ثلاث : مائة ألف ، ثم

ثلاثمائة ألف ، ثم مائتي ألف ، فصلت بعضها عن بعض فترات أخرى تميزت بإنحسار الزحف الجليدي ، وعندما كان الجليد ينحسر من فوق سطح الأرض كانت تكسي بغطاء خضري مزدهر ، وهكذا .. وقد شهد ذلك العصر ظهور النباتات والغابات ، كما ظهرت الحيوانات اللافقارية في البحار ، وانتشرت أنواع من القواقع الأرضية .

كما ظهرت بعض الحيوانات الفقارية من الثدييات ، ومنها حيوان الرنة ، والثعلب القطبي ، وانتشر بقر البحر في الأنهار ، ومرحت الأسود والضباع في الغابات ، وانتشرت الدببة في الكهوف ، وبعض الحيوانات المنقرضة ، كذلك الفيل الضخم الذي يطلق عليه (الماموث) ، وحيوان الميجاثيريوم والجلبتودون والديناصورات ، وظهرت في ذلك العصر الفيلة والأحصنة والثيران بكثرة ، مع شيء من الأختلاف عما ظهر في حقبة الباليوسين ، أي : منذ تسعين مليون سنة ، والحقبة التالية لها وهي (الميوسين) منذ من خمسة وعشرين مليون سنة ، وهي الحقبة التي شهدت ظهور بعض أنواع من الطيور ، كالبجع وبداية طائر البطريق ، وطيور الماء التي تشبه (أبو قردان) في العصر الحديث وغيرها ، وانتشرت الخراتيت ، والغزلان والزراف ، وبعض الكلاب والدببة ، والنسانيس والقردة ، وبعض الحيوانات المفترسة كالنمور ذوات الناب ، بل إن العلماء السوفييت عثروا على سمكة ضخمة متحجرة في باطن الأرض ، عند مدينة خاركوف ، حددوا

عمرها بأنه حوالي ثلاثين مليون سنة ، وغرابة الكشف أيضاً أن قشر السمكة مازال محتفظاً ببريقه ، كشفوا عنها أثناء حفر نفق سكة حديد ، وتم نقلها إلى المتحف العلمي لجامعة خاركوف .

كل ذلك وغيره سبق ظهور الإنسان ، وقد وجدت بقاياه في الصخور القديمة ، وقيعان البحار ، والكثبان الرملية ، ويقول مؤلفا كتاب (صور من حياة ماقبل التاريخ) - صفحة 148 :
(وقبل المليون سنة تقريباً ، وجدت بقايا لكائنات شبيهه بالإنسان مثل جنس (اوسترالويشكس) ، والذي وجدت بقاياه في أفريقياً ، وانتشر في عصر البلايستوسين المتوسط عبر معظم قارات العالم القديم .

وبعد ذلك وجدت بقايا ما يعرف بإنسان بكين ، وإنسان جاوة ، وإنسان هيدلبرج ، وإنسان نياندارثال ، وإنسان روديسيا ، وإنسان سوانكومب ،
ويختار بعض العلماء من بين هؤلاء الأناسي إنسان هيدلبرج بإعتباره الحلقة الوسطى بين الإنسان الذي يتكلم والحيوانات التي تصيح ، أما الإنسان النياندرتالي فيظهر أنه كان ذا مباديء فكرية من اللغة الملفوظة)

وكل هؤلاء الأناسي وجوه مختلفة لمخلوق واحد ، كان يتنقل من مرحلة إلى مرحلة في تسوية الخالق له ، فكلما مضت مرحلة من التسوية تغيرت بعض أوصافه ،

وأفرده الباحثون في الجيولوجيا والأنثروبولوجيا بتسمية ، وقد وجدت تلك البقايا بصورة ناقصة ونادرة ، مما يجعل معلوماتنا عن هذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان بعيدة كل البعد عن الكمال .

وأول كائن إنسي له المميزات التشريحية للإنسان المعاصر ، وله صفاته من الذكاء ، والقدرة على التعبير عن نفسه هو (إنسان كرومانيون) والذي وجدت بقاياه في جنوب فرنسا ، في كهوف ترك آثاره على جدرانها رسوماً لبعض الحيوانات التي إصطادها ، ويتضح منها أن هذا المخلوق تمتع بقدر من الذكاء يربطه بالإنسان الحالي .

وأقدم بقايا لإنسان كرومانون ترجع إلى حوالي ثلاثين ، إلى خمسة وثلاثين ألف سنة مضت ، وهذه الفترة تعتبر من أقدم فترات التاريخ المسجل .

هذه النماذج التي عثر عليها من بقايا الإنسان على الأرض تمتد كما رأينا منذ ماقبل مليون سنة ، وهي تؤرخ لمسيرة هذا المخلوق حتى عهد ، قدره العلماء بخمسة وثلاثين ألف سنة .
وقد نشرت جريدة الوفد في 6 / 10 / 1996 ((قد نعتمد بعض الصحف اليومية مرجعاً ننقل عنه بعض الأخبار حين لا يتوافر لدينا مؤلف نعتمده في توثيقها ، ومع ذلك فنحن نذكره في إطار أنه خبر ظني الدلالة))

نشرت الجريدة أن الإنسان الأول عاش أيضاً في جبل طارق في عدة كهوف عثر عليها هناك ، وأن ذلك كان منذ مايقرب من ثلاثين ألف سنة .
ومع ذلك فقد نفاجأ بوجود أحافير تدل على أن ظهور الإنسان كان أقدم من هذا التقديري ، فمازالت الأرض محتوية على شواهد دالة على بدء الخلق وكيفيته ، ولن يبلغ الإنسان مبلغ الحقيقة إلا إذا داوم على البحث ، واستمر في السير تفتيشاً لى شواهدها وأدلتها ، وهو ما أمرت به الآيتان القرآنيتان :
{{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 20 }} - العنكبوت .

وقوله تعالي :
{{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ 20 }} - الذاريات .

وكل ماسجله العلم من مراحل الحياة على الأرض هو ولا شك من معطيات البحث والسير فيها ، فهي خطوات في الطريق الصحيحة ، تهدي الإنسان إلى أصله ومنشئه ، عبر تلك الآماد السحيقة .. لقد كانت تلك الآماد - ولاشك - مقدمات لخلق الإنسان {{ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ 4 }} - التين ، أي : إن خلق الإنسان كان إرادة سابقة أزلاً على وجود الأرض ذاتها ، قبل مليارات السنين ، ثم كانت الأرض ، وكان مامر بها من عهود

سحيقة يعجز العقل عن تصورها - هو التمهيد الإلهي الباهر لظهور السلالات البشرية ، الذي تضاربت الآراء في توقيته ، فليس من هذه العهود ما يعتبر حقيقة مطلقة .. بل هي جميعاً آراء نسبية ، تتفق في الحد الجامع بينها ، وتختلف في العهود والحقب ، ولا سبيل حتى الآن إلى معرفة متى كانت بالضبط بدايتها ونهايتها .

وأكبر دليل على نسبية المعلومات المدونة في المراجع العلمية حول الإنسان ، وعصر ظهوره على الأرض (قبل مليون سنة) - ما أعلنه مؤخراً أحد العلماء الأنثروبولوجيين ، من أن وجود الإنسان كان أسبق مما سقناه نقلاً عن موسوعة الثقافة العلمية ، وعن كتاب (صور من حياة ماقبل التاريخ) وهو خبر لم ندهش له ، ونحن نؤمن بنسبية الصدق في معطيات العلم الحديث ، وبخاصة في هذا المجال .

لقد نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر صباح الأربعاء (8 / 11 / 1972) : (أن البروفيسور ريتشارد ليكي أحد العلماء الأنثروبولوجيا - علم الإنسان) .. أعلن في كينيا أنه تم إكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، وتعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول .

وقال العالم : (إن هذا الإكتشاف يمتد في قدمه مليون

ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن ، وقد تم إكتشاف عظام الجمجمة ، مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ ، في جبل حجري ، بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف في كينيا) .

وقال العالم : (إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ ، وكيف ؟ ومتى ؟) .
وقد قدم ريتشارد ليكي ، وهو مدير المتحف الوطني في كينيا - تقريراً عن إكتشافه إلى الجمعية الجغرافية الوطنية في واشنطن ، وقال : (إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية داروين - تفيد أن الإنسان تطور من خلوق بدائي ، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد ، وإن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين ، وله مخ كبير - يرجع إلى نحو مليون سنة) .
هذا في حين أن الكشف الجديد يدل على أن المخلوق الإنساني المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد ، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام ، وأنه يمكن على هذا الإعتبار إستبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته .

وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليق لها على هذا

الكلام : (أن نظرية ليكي تقوم على أساس أن المخلوق البدائي الأول وإسمه العلمي (أوسترالوبثيكوس) وكان أساساً من أكلة النباتات ، قد وصل إلى مرحلة تطويرية مسدودة ، بينما إستطاع الإنسان الذي استخدم اللحم في غذائه ، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية - أن يبقى على قيد الحياة) .

وأكد ليكي في تقريره : (أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها ، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حالياً ، إلا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التي عثر عليها للإنسان الأول ، وبذلك تتفق مع أي نظريات حالية عن تطور الإنسان) .

وواضح إذن أن الفرق الزمني هائل بين هذا الرأي ، وما تقوله نظرية داروين ، كما أن الفرق هائل أيضاً في جوهر التصور للإنسان الأول بين النظريتين ، فهو عند داروين يمشي على أربع منذ مليون سنة ، ثم انتصبت قامته ، وعند ليكي يمشي منتصب القامه منذ مليونين ونصف المليون من السنين ، وأنه كذلك منذ كان .

فإذا رجعنا إلى ما أورده المؤلف سيد أحمد الكيلاني في كتابه عن (نظرية داروين بين التأييد والمعارضة - صفحة 21) حين قال : (وقد أذاع البروفيسور جوهانس هوررزلر - العالم الذري في سمنتبال بسويسرا

- بياناً في مارس 1956) نجد أنه عارض نظرية داروين بشدة ، وقال : (إنه لايوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد ، وإن التجارب الواسعة التي أجراها ، دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً ، وبعيداً جداً) .

وأضاف إلى ذلك : (أن الهياكل التي درس عليها تؤكد نظريته ، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعي بمدينة بال ، قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة ، وهذا هو التاريخ الذي أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية) .

وبتاريخ 31 مارس 1956 أعلن في أمريكا أن الدكتور (رويتر) المشرف علي الأبحاب في جامعة كولومبيا - قد أيد البروفيسور هورذلر في وجهة نظره ، واعتبرت نظرية داروين بذلك رأياً لا يستند إلى أي دليل علمي ، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع ، إستقلالاً تاماً ، فمنها الإنسان الذي يمشي على رجليه ، ومنها الدواب التي تمشي على أربع ، ومنها الزواحف التي تمشي علي بطونها .

وإذا كان سياق الداروينية يقرر أن القردة خلقت هكذا مستقلة عن الأنواع الأخرى قبلها ، فما الذي يجعلها أصلاً لنوع الإنسان في فرضية داروين ، في حين أن الأقرب للمنطق هو أن القدرة التي خلقت نوع القردة

التي تمشي على أربع - قد خلقت نوعاً آخر يمشي منتصباً على رجلين ، وهو الإنسان ، وهي القدرة التي أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحركة ، لكل نوع عالمه وقدراته ، وبدايته ونهايته ، فالكل صادر عن قدرة مطلقة واحدة ، تماما كما حدث القرآن عن وحدة الأصل وإختلاف الشكل - في قوله تعالى : {{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 45 }}- سورة النور .

نحن إذن أمام جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة ، التي تركز نسبية المعلومات التي تضمنتها ، ولكل واحدة منها أدلتها التي تستند إليها في تقرير جوانب التصور الزمنية والخلقية ، ولا ريب أن في كل منها شيئاً من الحقيقة الذي يتراوح حتى الآن مابين مليون سنة ، وعشرة ملايين من السنين .

ومن أواخر ما نشرته جريدة الأهرام في هذا الشأن ، خلال شهر يونيو 1966 ، ماتضمنه بحث علمي آخر في بريطانيا ، قد يكون دليلاً آخر لهدم نظرية داروين القائلة بأن الإنسان أصله قرد ، أو منحدر من إحدى سلالات القردة العليا ، تحدى العلماء البريطانيون الرأي العلمي السائد بأن الإنسان الأول كان يمشي معتمداً على يديه ورجليه ، مثل الشمبانزي .

وقال العلماء في جامعة ليفربول البريطانية : (إن الرأي الأرجح هو أن الإنسان الأول كان يسير منتصب القامة ، تماماً مثل الإنسان اليوم ، وأوضحوا أنه لو كان الإنسان القديم يسير منحنياً - كما تصور ذلك بعض النظريات العلمية - فإنه لم يكن من الممكن أن يعتدل في قامته ، ويسير كما هو الآن أبداً) .

وأشار العلماء إلى أنهم أخذوا أحجام الإنسان القديم ومقاساته من هيكل كائن شبيه بالإنسان ، وهو المعروف باسم (لوسي) ، والذي عثر عليه في أثيوبيا ، ويرجع إلى ثلاثة ملايين عام مضت ، ثم استخدموا الكمبيوتر في تطوير إنسان آلي صناعي (روبوت) لكي يكون نموذجاً لكيفية تحرك (لوسي) ، وأوضح العلماء أن التجارب أثبتت أن (لوسي) - وهي أنثى - لم تكن لتتطور وتمشي منتصبة القامة بعد ذلك ، وقال الدكتور (روبن كرمبتون) أحد المشاركين في البحث : إن ذلك يعنى أن النظريات العلمية التي تظهر الإنسان القديم يمشي في وضع مُنْحَنٍ في حاجة إلى إعادة كتابة ، وأشار إلى أنه ما إن بدأ الإنسان يقف على قدمين ، فإنه كانت هناك ضغوط قوية لكي يسير ويقف منتصباً .
وأوضح أن المشي بشكل منتصب يساعد الإنسان على التنفس بشكل جيد ، ومشيراً إلى أن قرود الشمبانزي عندما تمشي منحنية فإنها تسير لوقت قصير للغاية ، لأن هذا الوضع لا يساعدها على التنفس الصحيح .. بل يصيبها بالإجهاد . وقال : إن هذه القرود بعد خمسين

خطوة فقط من المشي في إنحناء تسارع بالجري ، بعكس الإنسان القديم الذي يظهر علم الآثار أنه كان يمشي لأكثر من مائتي كيلومتر ، وهذه المسافة لا يمكن أن تتم وهو في حالة إنحناء .
وهذا الرأي يلتقي في تقديره الزمني تقريباً مع تقدير البروفيسور (ليكي) بناءاً على جمجمة كينيا ، غير أن مرتكز الإستدلال لم يكن البحث في عمر الأحفورة ، بل قام على مناقشة القدرة على المشي منتصباً أو منحنياً لدى القردة والإنسان ، كيما يصل في النهاية إلى رفض نظرية داروين ، بأسلوب التقنية المعاصرة .

وغني عن البيان أن كل الجهود العلمية حتى الآن تنصب على معارضة داروين فيما ذهب إليه ، وأن ماقدمناه لم يكن سوى بعض العينات التي جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والإرتقاء .. حتى إننا نستطيع أن نقول : إن نظرية داروين قد ثارت لكثرة ماتعرضت له من نقد - مجرد مقولة هشة .. لا تعني شيئاً في مجال البحث عن أصل الإنسان ، وإن قدمت الكثير في مجال (البيولوجيا) أو علم الإنسان .

لقد سقطت إذن فكرة (التطور الخالق) ، ونقول : (فكرة) ، ولا نقول : (نظرية) ، ورغم أن الناس فتنوا بهذه النظرية لعدة عقود من الزمان ... سقطت بكل مارتبط بها من أفكار أخرى .
وانتصرت حقيقة (الخلق المستقل) التي قررها الدين ،

كما أكدها العلم ، فما كان الإنسان إلا بشراً منذ كان ، وما كان القرد إلا قرداً .
وهنا يطرأ سؤال ، ربما يبدو سابقاً لأوانه في سياق هذا البحث ، وهو :

هل كان وجود هذه الخليقة البشرية إرادة إلهية وأمراً إلهياً واحداً على الأرض ، أرادته القدرة الإلهية ؟ وتابعته في مراحله المتطاولة ؟ أو كان خلقاً متعدداً متقاطراً على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمني الهائل ؟ وكان آدم أحد هذه المراحل ؟

ذلكم هو ما سنحاول بيانه فيما يلي من الحديث .

والذي نريد أن نقوله إجمالاً : هو أن الخالق العظيم خلق هذا الكون الهائل حين قال : (كن) فكان .
كان كل ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، في إطار من الزمان المطلق ، والمشيئة المطلقة ، والإنكشاف المطلق ، فليس - بالنسبة إلى الخالق - قيود من الزمان ، أو المكان ، أو أي عوامل أخرى ، أما الإنسان فهو نقطة في بحر الحقيقة .. نقطة محكومة بالزمان والمكان ، وحدود الإدراك - كما أراده الله .

وقد خلق الله هذا الغنسان ليكون سيداً في الكون الفسيح ، الذي يتذايد ضخامة وإتساعاً أو إمتداداً ، دون توقف .. بأسرع من سرعة الضوء .

ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهذا الكون نهاية ، كما أن له بداية ، وحين تحين هذه النهاية سوف تتغير معالم الكون كله كم قال سبحانه : {{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ 1 وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ 2 وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ 3 وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ 4 وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ 5 وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ 6 وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ 7 وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ 8}}-
التكوير وقال تعالى :
{{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 48 }} - إبراهيم هل يعقل أن يكون هذا الملك والملكوت من أجل خليقة لا تدوم أكثر من عشرة أيام - بحساب الزمن الإلهي الذي يقرر :
{{ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ 47 }} - الحج ...!

وهب أن ذلك الزمان امتد إلى مليون سنة ، أو حتى عشرة ملايين ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون بضعة آلاف من الأيام الإلهية .. ولله المثل الأعلى .

إن ملك الله عظيم ...
وإن شأن الله أعظم ..

ولهذا الإله - تقدست أسماؤه ، وتعاظمت آلاؤه - سجدت له الأجساد والأرواح ، وعنت الوجوه والعقول ..
ومن أجل هذا كان موعد النهاية سراً مكنوناً لا يعلمه إلا هو .. إنه موعد الزلزال الكوني الذي يضع النهاية

لرحلة ملايين السنين .. ويكفي أن نردد هنا قول الله سبحانه :
{{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ 1}} - سورة الحج .

الإنسان بين العلم والقرآن

مرة أخرى نكرر ولا نمل التكرار :
لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة في أغلب الأحيان بل هي رؤى نسبية ، من حيث إن العقل الذي يتوصل إليها مُرْتَهنٌ بقيود من البيئة ، والزمان ، والقدرات الذاتية ، والدلائل المتاحة .. إلخ .

أما القرآن ، وهو الكلمة الإلهية النهائية في الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى - فإنه ولا شك يقدم للعقل الإنساني الحقائق النهائية في الموضوع ، ولكن الأجيال تتفاوت في فهم النص المقدس ، حتى ليبدو ماستخرجه الفكر الديني - حتى الآن من النصوص - مناقضاً للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما .

ونحن - باديء ذي بدء - نقرر أن التناقض بين القرآن ، وما توصل إليه العلم من حقائق نهائية - مستحيل ، وإنما التناقض من جهة أن العلم لم يستقر بعد على بر الحقيقة الكاملة ، بل ما زال يدور في إطار النظريات

الظنية الدلالة ، إلى جانب أن التناقض قد يأتي من ضعف التفكير الذي تتسم به معالجة الأفكار .

ولننظر مثلاً - إلى الجمود الذي اتسم به التفكير الديني حين توقف عند القول بالبداية الآدمية للحياة على الأرض ، وهي بداية قدرت في حدود عشرة آلاف عام ، وهو تقدير متواضع في مقابل القول بأن بداية الحياة الإنسانية تراوحت ما بين مليون سنة ، وعشرة ملايين من السنين .
أي بَوْنٍ شاسع بين التقديرين ؟ وهل من سبيل إلى لقاء بينهما ؟

نحن نرى أن ذلك ممكن من خلال فهم واعي للنصوص القرآنية .. فهم يخرج عن المذهب التقليدي الذي إلتزمت به التفاسير كلها ، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني ، ما دام هناك إمكان لإلتقاء العلم بالقرآن .

ولسوف نحاول السير مع القرآن في حديثه عن الإنسان والخلق ، منذ الآيات الأولى التي استهل بها الوحي المحمدي ، وسيراً مع هذا الوحي إلى شاطيء الحقيقة القرآنية .

لكن - قبل أن نشرع في هذا العرض نحب أن نقدم نوعاً من الأحافير ، أو الأعاجيب التي أشارت إليها المراجع العربية ، وهي ذات دلالة ومغزى ، يخدم سعينا لتحقيق

إمكان اللقاء بين العلم والقرآن ، وإن غلب عليها طابع المبالغات ، وأسلوب الأساطير .

{{ الفصــــل الثالث من الباب الأول }}

نظرة القدماء إلى وجود الخليقة

إذا كان علماء السلف قد اتفق جمهورهم على أن آدم هو أول الخليقة ، وأول ما خلق من تراب ، - فإن بعضهم قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فتصوروا لهذه الخليقة ممتداً في أعماق الزمان ، قبل آدم ، ربما إلى ملايين السنين ، والمهم أن أحداً ممن قال بهذا المذهب لم يلق نكيراً من الفريق الآخر .. بل عاشت الآراء المتناقضة جنب إلى جنب ، حتى تلقيناها ورأينا كيف أنار الله بصيرة الأقدمين فامتدت رؤيتهم إلى أعماق الغيب قبل التاريخ على هذه الأرض ، وتنوعت رؤيتهم تبعاً لإختلاف التخيلات ، وما نحسب أنهم اعتمدوا على شواهد مادية .. بل هي محض تخيلات هداهم إليها تأملهم المنطقي في أحوال الدنيا .. (ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة ، وهي أنواع :

منها ذوات الأجنحة ، وكلامهم قرقعة .

ومنها ما لها أبدان كالأسود ، ورؤوس كالطير ، ولهم

. شعور وأذناب ، وكلامهم دويّ
ومنها ما له وجهان ، واحد من أمامه ، والآخر من خلفه
. ، وله أرجل كثيرة
ومنها ما يشبه نصف الإنسان بيدٍ ورجلٍ ، وكلامهم مثل
. (صياح الغرانيق (جمع غرنوق وهو طائر مائي
ومنها ما وجهه كالآدمي ، وظهره كالسلحفاة ، وفي
. رأسه قرن ، وكلامهم مثل عَوِي الكلاب
. ومنها ما له شعر أبيض ، وذنب كالبقر
. ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال

ويقال : إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت
. (مائة وعشرين أمة . (المستطرف / 398

هذه صورة من تفكير الأقدمين أو تخيلاتهم عن الماضي
السحيق قبل هذه الخليقة ، فقد لفقوا أشكالاً من
المخلوقات لا دليل على أنها وجدت إلا في الإحتمال
الخيالي ، ومع ذلك يبقى - بعد استبعاد ما لا دليل عليه
من الأشكال - أن الأرض كانت معمورة قبل آدم ، سواء
بمثل تلك الأصناف ، أو بأصناف أخرى كالديناصورات
، أو الماموث أو بأوادم آخرين قبل آدم - أبينا - على ما
قرره بعض العلماء ، أي : أن آدم لم يكن أول مخلوق
عاقل على هذه الأرض

ومن المؤكد أن أمماً كثيرة من المخلوقات كانت موجودة
قبل ظهور الإنسان ، كأمم الطير ، والحيوان ، والنبات

، وهي كلها أمم بنص الآية الكريمة{{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. 38 }} سورة الإنعام.، وإذا كان النص صريحاً في دواب الأرض والطير ، فإن النبات في نظر العلماء كائن نام (ينمو) على إختلاف أشكاله وفصائله ، والآية الكريمة تشير إلى حقيقة مذهلة حين تأتي فاصلتها : {{ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ 38 }}- سورة الإنعام .، وفي ذلك جملة من المناقشات حفلت بها كتب التفسير .

أما عن إهتمام العلماء بالتفتيش أو بملاحظة ما يجدون صدفة في الأرض ، ومتابعة آثار الأحياء فيها ، واستدلالهم بشواهدها على معالم الحياة البشرية وعهودها السحيقة - فذلك أمر لم تتوافر أدواته للأقدمين ، ولا تهيأت أسبابه إلا في عصرنا الحديث مع تطور علوم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) ، والتحليلات الكربونية ... وغيرها .

ولكن كان للأقدمين فكرة عن الإنسان القديم ، ولم تكن أفكارهم تذهب في تقدير تاريخ الحياة على الأرض إلى أبعد من حديث القرآن الكريم عن آدم ونوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ... إلخ .

وهذه عهود قريبة نسبياً كما سبق أن قررنا ، وهي لم تتجاوز ثلاثين ألف عام ، وهم معذورون قطعاً فيما

. ذهبوا إليه
وقد اعتمد بعضهم على مشاهداته لقطع من العظام وبقايا هياكل عظمية ، حاولوا تفسيرها ووصفها بقدر ما رزقوا من القدرة على تصور حياة الماضيين وأوصاف هيئاتهم الجسمية ، وهي تبعد كثيراً عن الواقع الذي تصفه الأحافير (الحفريات) التي عثر عليها العلماء في عصرنا ، ولو أن هذه الأحافير التي وصفها السلف - وجدت الآن لتغيرت فكرتنا عن الإنسان ، في عهوده السحيقة ، لكن المشكلة أن شيئاً من هذه الأحافير لا وجود له الآن ، فهو وجود مقرون بالمبالغة والتذييد ، . حتى حجبت الحقيقة ، وضاعت معالمها ضياعاً نهائياً
ولنذكر عينة من هذه الأخبار ، يذكر مؤلف كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) : (قال الشيخ عبد الله ، صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى (باشقرد) ، فرأيت قبور عاد ، فوجدت سنَّ أحدهم طوله أربعة أشبار ، وعرضه شبران ، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ، ووزنها ألف ومائة مثقال ، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من . (أضلاعهم ثلاثة أشبار ، كلوح الرخام

وقد يكون هذا الوصف من باب المبالغة المسرفة ، لأن مشاهدة المومياوات المتحفية التي مضى عليها خمسة آلاف سنة مثلاً - تبين لنا أن حجم الإنسان كان بنفس

الحجم الحالي ، دون أدنى علاقة بما يصفه الشيخ عبد الله في كتابه المشار إليه ، ولذلك يبدو لنا أن للخيال دوراً في تضخيم حجم ما يزعم رؤيته من بقايا قوم عاد ، وربما كان ذلك من باب (الحواديت) التي جاء منها أشكال وألوان في كتاب (ألف ليلة وليلة) .
أو ربما كان ما وجدوه بهذا الوصف حيواناً هائل ، كالديناصور مثلاً ، أو الأفيال الضخمة ، التي تقاس أنيابها بالأشبار ، وزعم الواصف أنه يصف إنساناً من قوم عاد .

ويستمر الشيخ فيقـــول : (ولقد رأيت في بلغار ، سنة ثلاثين وخمسمائة - نسل عاد رجلاً طويلاً ، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً ، كان يسمى دنقي أو ديقي ، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه ، كما يأخذ الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه - كأنهما قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا ، لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيّراً متواضعاً ، كان إذا لقيني يسلم عليّ ويرحب ، ويكرمني ، وكان رأسي لايصل إلى ركبته ، رحمة الله عليه ، ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها ، إلا حمام واحد ، وكانت له أخت على طوله ، ورأيتها مرات في بلغار ، وقال لي قاضي بلغار ، يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان

أقوى أهل بلغار ، قيل : (إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته) (المستطرف / 398) .

وقد تأثرت آراء الأقدمين من العلماء بما ورد في العهد القديم من أساطير عن الإنسان القديم ، ولا سيما قصة عوج بن عنق ، وهي أحد معالم الحياة القديمة التي كانوا يتسلّون برواياتها ، وقد كان المستمعون يبهرون بتفاصيلها ، ويتصورون أنها تعبر عن واقع شهدته الأجيال القديمة .

روى عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان (من أحسن الناس وأجملهم ، إلا أنه كان لايوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال : إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير ، وعَمَّره الله دهراً طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام ، وكان جباراً في أفعاله ، يسير في الأرض براً وبحراً ، ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصرت بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم ، واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً في منقاره حجر مدور ، فوضعه على الحجر الذي على رأسه ، فانثقب من وسطه ، وانخرق في عنقه ، وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصا فقتله ، ويقال : إن مويى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع

وعصاه عشرة أذرع ، وقفز في الهواء عشرة أذرع وضربه فلم يصل إلي عرقوبه ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

والعجيب أن يزعم اوي الأسطورة أن عوجاً عاش - وهو الحفيد لآدم - حتى عهد موسى ، أي أكثر من سبعة آلاف سنة ... ؟؟
وتمضي الأسطورة فتحكي عن عنق أم عوج فتقول : (عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام ؟؟) وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان ، وفي كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين) ، وقال على إبن أبي طالب : (هي أول من بغى في الأرض ، وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصي ، واستخدم الشياطين ، وصرّفهم في وجوه السحر ، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادة عوج بسنتين) .

إننا لم نأت بكل ما قيل عن عنق وولدها عوج ، وقد اختصرنا شيئاً من أخبارهم لكي نظهر ما بلغته الأساطير من السيطرة على عقول الناس قديماً ، وحين تأتي الأساطير في كتاب مقدس مثل التوراة - فإنها تستبد بعقول الأتباع ، وتحجب عن أبصارهم بصيص العقل ، وهو ما غرقت فيه عقول كثيرين طوال قرون عديدة .

{{ الفصل الرابع من الباب الأول }}

حـــديـــث القـــرآن

جدير بنا أن نذكر السور القرآنية التي تعرضت لقصة الخلق ، وما يتصل بها ، مرتبة حسب النزول ، لنتابع من خلال هذا الترتيب تدافع معاني الوحي القرآني ، ومنهجه في سوق الأحداث والحقائق ، كما أراد الله للإنسان أن يتعلمها ، وقد جاء الترتيب هكذا :

(رقم السورة حسب النزول -- (1
اســــــم الســـــــــورة -- العلق
ملاحظـــــــــــــــات -- الإشارة الأولى للإنسان
****
(رقم السورة حسب النزول -- (4
اســــــم الســـــــــورة -- المدثر
ملاحظـــــــــــــــات -- الإشارة الأولى للبشر
****
(رقم السورة حسب النزول -- (7
اســــــم الســـــــــورة -- الأعلى
ملاحظـــــــــــــــات -- الذي خلق فسوى (لأول مرة)
****
(رقم السورة حسب النزول -- (27

اســـــم الســــــورة -- التين
ملاحظـــــــــــــات -- إشارة عامة لخلق
(الإنسان (في أحسن تقويم
****
(رقم السورة حسب النزول -- (30
اســـــم الســــــورة -- القيامة
ملاحظـــــــــــــات -- الذكر والأنثى - نطفة
(من (منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى
****
(رقم السورة حسب النزول -- (32
اســـــم الســــــورة -- المرسلات
ملاحظـــــــــــــات -- إشارة إلى الماء المهين
، والقرار المكين
****
(رقم السورة حسب النزول -- (33
اســـــم الســــــورة -- ق
ملاحظـــــــــــــات -- إشارة إلى حضور الله
في خلقه
****
(رقم السورة حسب النزول -- (35
اســـــم الســــــورة -- الطارق
ملاحظـــــــــــــات -- إشارة إلى مادة الخلق
في الصلب والترائب والماء الدافق الذي يخرج من
. بينهما
****

(رقم السورة حسب النزول -- (37
اســــــــم الســــــــورة -- ص
ملاحظـــــــــــــــات -- قصة الخلق والملائكة
(وإبليس للمرة الأولى (دون ذكر آدم
****
(رقم السورة حسب النزول -- (38
اســــــــم الســــــــورة -- الأعراف
ملاحظـــــــــــــــات -- الخلق والتصوير ثم
(قصة آدم والملائكة وإبليس - (آدم يذكر للمرة الأولى
****
(رقم السورة حسب النزول -- (40
اســــــــم الســــــــورة -- يس
ملاحظـــــــــــــــات -- (أو لم ير الإنسان أنا
(خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين
****
(رقم السورة حسب النزول -- (41
اســــــــم الســــــــورة -- الفرقان
ملاحظـــــــــــــــات -- الماء والبشر ، والنسب
والصهر
****
(رقم السورة حسب النزول -- (42
اســــــــم الســــــــورة -- فاطر
ملاحظـــــــــــــــات -- (والله خلقكم من تراب
(ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً
****

(رقم السورة حسب النزول -- (43
اســـــم الســـــــورة -- مريم
ملاحظـــــــــــــات -- (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)
****
(رقم السورة حسب النزول -- (44
اســـــم الســـــــورة -- طه
ملاحظـــــــــــــات -- (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) / آدم وحياته الأرضية
****
(رقم السورة حسب النزول -- (49
اســـــم الســـــــورة -- الإسراء
ملاحظـــــــــــــات -- إعتراض إبليس على السجود للطين ، وحوار بين الله وبينه
****
(رقم السورة حسب النزول -- (53
اســـــم الســـــــورة -- الحجر
ملاحظـــــــــــــات -- الخلق من صلصال من حمأ مسنون - إلى آخر القصة
****
(رقم السورة حسب النزول -- (54
اســـــم الســـــــورة -- الأنعام
ملاحظـــــــــــــات -- إشارة إلى الخلق من الطين لا شك في هذا

****
(رقم السورة حسب النزول -- (55
اســــــم الســــــــورة -- الصافات
ملاحظـــــــــــــــات -- إشارة إلى الخلق من الطين اللازب
****
(رقم السورة حسب النزول -- (59
اســــــم الســــــــورة -- غافر
ملاحظـــــــــــــــات -- إجمال مراحل الخلق والشيخوخة
****
(رقم السورة حسب النزول -- (68
اســــــم الســــــــورة -- الكهف
ملاحظـــــــــــــــات -- علاقة التراب بالنطفة ((ثم سواك رجلاً
****
(رقم السورة حسب النزول -- (69
اســــــم الســــــــورة -- النحل
ملاحظـــــــــــــــات -- (خلق الإنسان من نطفة (فإذا هو خصيم مبين
****
(رقم السورة حسب النزول -- (70
اســــــم الســــــــورة -- نوح
ملاحظـــــــــــــــات -- الأطوار ، والإنبات في الأرض والعودة إليها

****
(رقم السورة حسب النزول -- (72
اســــــم الســـــــورة -- الأنبياء
ملاحظـــــــــــــــات -- الحياة من الماء (من
(الماء كل شيء حي
****
(رقم السورة حسب النزول -- (73
اســــــم الســـــــورة -- المؤمنون
ملاحظـــــــــــــــات -- تفصيل مراحل الخلق (
(من سلالة من طين
****
(رقم السورة حسب النزول -- (74
اســــــم الســـــــورة -- السجدة
ملاحظـــــــــــــــات -- (بدأ خلق الإنسان من
(طين - ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين
****
(رقم السورة حسب النزول -- (81
اســــــم الســـــــورة -- الانفطار
(ملاحظـــــــــــــــات -- (خلقك فسواك فعدلك
****
(رقم السورة حسب النزول -- (83
اســــــم الســـــــورة -- الروم
ملاحظـــــــــــــــات -- الخلق من تراب ثم
الإنتشار على الأرض بشراً
****

(رقم السورة حسب النزول -- (87
اســــــــم الســـــــــورة -- البقرة
ملاحظـــــــــــــــــات -- الخلافة والسجود من الملائكة والتمرد من إبليس
****
(رقم السورة حسب النزول -- (93
اســــــــم الســـــــــورة -- النساء
ملاحظـــــــــــــــــات -- الخلق من (نفس واحدة وخلق منها زوجها)
****
(رقم السورة حسب النزول -- (98
اســــــــم الســـــــــورة -- الرحمن
ملاحظـــــــــــــــــات -- الخلق والبيان - (من صلصال كالفخار) خلقه فعلمه فصار إنساناً
****
(رقم السورة حسب النزول -- (99
اســــــــم الســـــــــورة -- الإنسان
ملاحظـــــــــــــــــات -- (حين من الدهر) هو الماضي البشري (لم يكن شيئاً مذكوراً)
****
(رقم السورة حسب النزول -- (104
اســــــــم الســـــــــورة -- النور
ملاحظـــــــــــــــــات -- (والله خلق كل دابة من ماء) ، وأشكال الخلق
****

(رقم السورة حسب النزول -- (105
اســـــــم الســــــــورة -- الحج
ملاحظـــــــــــــــات -- تقرير كامل ونهائي عن
. خلق الإنسان ومراحله
****
(رقم السورة حسب النزول -- (108
اســـــــم الســــــــورة -- الحجرات
ملاحظـــــــــــــــات -- ذكر وأنثى - شعوب
. وقبائل - تعارف : حضارة

لقد بدأ القرآن ومضته الأولى بالآيتين الكريمتين
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }}
2 }}- سورة العلق ، وهي بداية رائعة ، تتضمن
تعريف الله سبحانه وتعالى لذاته ، وهو يخاطب
مصطفاه محمداً خطابه الأول ، ولتحقيق هذا الغرض
يذكر من صفاته الحسنى صفة (الخالق) ، وليس دون
هذه الصفة إمكان للتعرف ، وفي الحديث القدسي :(
كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ،
فبي عرفوني) ، وبديهي أن يتعرف المخلوق على
خالقه ، سيَّما وهو يخاطبه ، ويعرفه بنفسه ، ويذوده
بأدق المعلومات عن أصل الصنعة : {{ خَلَقَ الْإِنسَانَ
. مِنْ عَلَقٍ }} ، وهي معلومة موضوعية خالصة

وبديهي أيضاً أن يثير هذا السؤال في نفس المخاطب (محمد) أشواقاً إلى معرفة لا نهاية لها ، وتطلعاً إلى إدراك العلاقة بين (العلق) في مهانته ، وقلة شأنه ، و (الإنسان) في مهابته وعظم شأنه ، في شخص المخاطب الأول بهذا الكلام (محمد المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

ويأتي بعد ذلك الحديث القرآني الثاني عن (الإنسان) فإذا هو لا يذكره بلفظه .. بل يستخدم لفظاً آخر يدل عليه ، هو (البشر) ، وذلك في السورة الرابعة من التنزيل العزيز ، سورة (المدثر) ، وترد فيها لفظة (البشر) أربع مرات في الآيات : (25) {{ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ 25 }} ، و (29) {{لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ 29 }} ، و (31) {{ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ 31 }} ، و (36) {{ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ 36 }} ، ولا ريب أن مدلول الكلمة في الآيات الأربع يعني المخلوق المخاطب بالآيات المنزلة من الوحي ، أي : الإنسان في عمومه ، ثم لم ترد كلمة (البشر) بعد ذلك في جملة من السور بترتيب النزول ، حتى السورة السادسة والثلاثين ، وهي سورة القمر ، وذلك في سياق قصة النبي صالح مع قومه ثمود ، حين قال قائلهم : {{ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ...}} 24

بيد أن الإشارة التي تعتبر إضافة إلى المفهوم الأول للخلق باعتباره المرحلة الأولى - جاءت في السورة

السابعة (في ترتيب النزول) ، وهي سورة الأعلى ، فذكرت المرحلة الثانية في إيجاد الخلق ، وهي مرحلة التسوية ، فقال تعالى : {{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى 1 الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى 2 }} ، والتسوية هنا عمل إلهي سوف يرد ذكره باعتباره دائماً الخطوة الثانية في بناء هذا الخلق .

والمذكور هنا هو مطلق الخلق ، ومطلق التسوية ، دون ذكر لمحلهما ، وهل هو البشر ، أو الإنسان ، لكن السياق يصرف العبارة إلى بيان {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } الذي أشارت إليه السورة الأولى .

ثم جاء ذكر (الإنسان) في سورة التين ، وهي السورة السابعة والعشرون نزولاً ، وذلك في قوله تعالى : {{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ 4 ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ 5 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ 6 }}- سورة التين ، والإشارة هنا إلى (الإنسان) الذي خلق من علق ، وعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فانقسم هذا الإنسان إلى مستوى رفيع { فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } ، ومستوى وضيع { أَسْفَلَ سَافِلِينَ } ، وهو وصف للواقع الذي يخاطبه الوحي القرآني في مكة : أناس آمنوا فارتفعوا ، وأناس كفروا فاتضعوا .

ثم يعود القرآن إلى خلق الإنسان في سورة القيامة ، وهي السورة الثلاثون نزولاً ، وذلك في قوله تعالى : {{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى 36 أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن

مَّنِيٍّ يُمْنَى 37 ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى 38 فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى 39 }}- سورة القيامة . ،وفي هذه الآيات إشارة إلى المرحلة السابقة على : {{ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }} ، وهي مرحلة النطفة من المني يقذفها الرجل في رحم المرأة ، لتصبح من بعد علقة يتخلق منها الذكر والأنثى .

وتضمنت الآيات - مما أدركه العلم الحديث - إشارة دقيقة إلى أن تحديد نوع الجنين ، ذكراً كان أو أنثى ، يتوقف على منيِّ الرجل ، لا على بويضة المرأة .

وهكذا أفادت هذه الآيات مزيداً من المعرفة بعملية الخلق وتفسيره ، فهي في الحقيقة بيان لما أجمله النص الأول في سورة العلق .

وكان حرص القرآن في تلك المرحلة الأولى على تأكيد العلاقة بين الحياة والموت والبعث ، فهو في آيات القيامة يختمها بقوله : {{ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى 40 }}- القيامة . ، وهو في السورة التالية لها ، سورة المرسلات (الثانية والثلاثين نزولاً) يعيد هذه الحقيقة في قوله تعالى : {{ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ 20 فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 21 إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ 22 فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ 23 }} ، وهو هنا يصف (المنيّ) المذكور في سورة القيامة بأنه (ماء مهين) ، ولكن المقدرة هي التي جعلت هذا الماء إنساناً سوياً .

ونزلت بعد ذلك سورة (ق) وهي السورة الثالثة والثلاثون - لتفيد حضور الله في نفس الإنسان : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ 16 }}- سورة ق ، فكيف يفلت الإنسان من قبضة الله ؟؟

ثم يأتي النص في سورة (الطارق) ليضيف مذيداً من المعلومات عن الماء الدافق (المنيّ) الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، وهي معلومة لم تكن معروفة حتى عصرنا ، و (الطارق) هي السورة الخامسة والثلاثون نزولاً .

ثم نزلت سورة (ص) تذكر قصة الخلق لأول مرة ، وهي السورة السابعة والثلاثون نزولاً ، قال سبحانه وتعالى :
{{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ 71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ 72 فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 73 إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ 74 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ 75 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ 76 قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ 77 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78 قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 79 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ 80 إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ 81 قَالَ

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 82 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 83 قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ 84 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ 85 }}- سورة ص

هذا النص القرآني يتضمن لأول مرة أساسيات القصة ، قصة الخلق ، من مبدئها إلى منتهاها ، وكل ما جاء بعد ذلك من نصوص القرآن متحدثاً عن هذه القصة - يضيف بعض التفاصيل التي تثري جوها ، وتوضح بعض غوامضها .

والأساسيات التي نقصدها في القصة هي :

1 - إخبار الله للملائكة بأنه سيخلق البشر .

2 - خلق البشر من طين - التسوية - النفخ من روح الله - الإنسان .

3 - أمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود للمخلوق عند استوائه واكتماله .

4 - سجود الملائكة أجمعين .

5 - رفض إبليس للسجود إستكباراً .

6 - إدعاء إبليس الخيرية على هذا المخلوق بخيرية النار على الطين .

7 - طرد إبليس وإمهاله إلى يوم الدين .

8 - توعد إبليس بغواية بني آدم ، إلا المخلصين .

9 - وعيد الله بجهنم لمن اتبع إبليس .

هذه الأساسيات تتكرر في جميع المواضع الأخرى في السورة التالية ، ولكنها تذيد بعض التفاصيل المثرية - كما قلنا - وهو ما نلاحظه مثلاً في السورة التالية نزولاً

. : السورة الثامنة والثلاثين ، وهي سورة الأعراف

غير أننا نلاحظ بداية ، أن القصة في سورة (ص) لم تتضمن ذكر آدم .. بل اقتصرت على الإشارة إلى أن المخلوق - موضوع الحديث - هو (بشر) بحسب ، ثم جاءت سورة الأعراف لتذكر آدم للمرة الأولى في الوحي القرآني ، فكان ذلك تفصيلاً بعد إجمال ، ومع ملاحظة أن السورتين متتاليتان ، ولكي نعرض تفاصيل القصة نتابع مناقشة كل أساسية على حدة .

{{ الفصل الخامس من الباب الأول }}

أولاً : إعـــلام الملائـــــكة

، قول الله سبحانه وتعالى للملائكة : {{ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا }} ، وهي عبارة تحمل كثيراً من المعاني ، ذلك أن الآية تبدأ بعبارة : {{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ }} ، فهي تستخدم لفظة (الرب) مضافة إلى ضمير المخاطب ، وهو : (محمد) صلى الله عليه وسلم ، على نسق ماجاء في الخطاب الأول : {{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }} ، وهي إضافة تقرب النبي من حضرة ربه ، وتدنيه من جلاله ، وهو ما جرى عليه الوحي في السور الأولى بشكل عام .

لكن .. كيف قال (ربك) ؟ وكيف تلقت الملائكة هذا القول ؟ وذلك ما لا سبيل إلى إدراكه ، وإن كان هنالك سبيل إلى تأويله : فالرب إذا تكلم فكلامه ليس بحرف ، ولا صوت ، وهذه صفة كلامه النفسي كما قررها علماء الكلام ، ولكن إدراك الخطاب الإلهي يتحقق في كل جنس بحسبه ، فإذا تلقى الإنسان ذلك الخطاب فمن خلال الحرف ، والصوت ، واللغة ، وإذا تلقته الملائكة فمن خلال قدراتها التي تختلف عن قدرات الإنسان ، لاختلاف طبيعتها عن طبيعته ، ولا مانع من أن يكون بلغة ما .. كيفما فطر الله ملائكته .

أما كيف تم هذا الحوار فخوض في غمار الغيب المحجوب ، والحديث فيه اتباع لما تشابه من آيات الله ، ونسأل الله أن يباعد بيننا وبين الفتن ، وأن يلهمنا القدرة على تأويل هذه المتشابهات بما يليق بجلاله ، وكل ما يعنينا هو التسليم بصدق الخبر ، ووقوع الحوار ، ولله في ذلك حكمة هو أعلم بها .

ولا ريب أن تلقي النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الخطاب كان مختلفاً عن تلقينا له ، باعتبار أنه أعلم بربه وأنه ذو إتصال بالملأ الأعلى (عالم الملائكة) ، منذ جاء الروح الأمين بالوحي ، فإذا خاطب الله نبيه فإن لهذا الخطاب موقعه من نفس النبي ، حتى تكاد قدراته الروحية ترفعه إلى مرتبة الشهود ، إستشفافاً لما وراء الكلمات المنزلة ، وإستشرافاً للحضور القدسي ،

فهو مائل على الأرض ، وهو في نفس الوقت يعاين من آيات ربه ما لا يعاين الجلوس من حوله ، إن كان الوحي بمحضر منهم .

أما الملائكة فحسبنا من وصفهم ما جاء بشأنهم في القرآن {{ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ }} ، وهم لا يسبقون الله سبحانه {{ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ 27 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ 28 }}- سورة الأنبياء ، وهم كذلك : {{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ 6 }}- التحريم .

ووصفهم القرآن أيضاً في مطلع سورة فاطر أو (الملائكة) - بقوله تعالى : {{ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 1 }}- سورة فاطر.

ولا ريب أن لهذه الأوصاف معاني محددة لا نستطيع أن نحيط بها علماً وحسبنا هنا أن ننقل عن تفسير (المنار) ما قرره الأستاذ الإمام محمد عبده ، حين تحدث عن الملائكة فقال : (أما الملائكة فيقول السلف : إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم ، وببعض أعمالهم ، فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها إلى الله تعالى .. فإذا ورد أن لهم

أجنحة نؤمن بذلك ، ولكننا نقول : إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور ، إذ لو كانت كذلك لرأيناها ، وإذا ورد أنهم موكلون بالعوامل الجسمانية ، كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس ، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم بإستحالة هذا ، بل يحكم بإمكانه ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به) .

ثم قال : (وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة ، وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهي من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه ، ولا سيما عند الحيرة ، والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في إستفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سننه تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العلمي ، والإستدلال العقلي ، والإلهام الإلهي) ، وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم ، غير معروف لأحد من البشر ، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك- (تفسير المنار 1 / 212 - 213) .

ثانيـــاً : خلق البشـــر من طيـــن

ونص إعلام الله للملائكة يأتي هكذا {{ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ 71 }}- سورة ص ، واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث .. أي : الإيجاد من عدم ، والسؤال هو : هل هذه الصيغة في موقعها تفيد المضى ، أو المستقبل ؟
ونرى أنها تفيد المضى ، أي : إن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به ، وقد أراد أن يخبر الملائكة تهيئة لهم ، حتى يتابعوا أحوال المخلوق ، خلال مراحل التسوية ، والنفخ الإلهي - كيفما يقعوا له ساجدين - كما أمر الله ، ولعل ذلك (الخلق) داخل في الأمر الأزلي (الخالق) (كن) وهو أمر لم تعرف الملائكة كل تفاصيله ، إلا أن يأذن لها الله بذلك ، أما بقية الإعلام فيتضمن ذكر (البشر) و (الطين) ، والعلاقة بينهما .

فأما البشر فهي تسمية لذلك المخلوق الذي أبدعه الله تعالى من الطين ، وأصله في اللغة من (ب ش ر) ، وهو يفيد (الظهور مع حسن وجمال) ، قال ابن فارس : (هو أصل واحد : ظهور الشيء مع حسن وجمال) ، وسمي البشر بشراً لظهورهم (مقاييس اللغة 1 / 251) وفي المعجم الكبير : البشر .. الإنسان ، للذكر والأنثى ، وللواحد والمثنى والجمع ، وقد يثني كما جاء في القرآن : {{ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ... 47 }}سورة المؤمنون ، وقد يجمع على (أبشار) - المعجم الكبير

2 / 335 وقد يتحدد المعنى في سياق المعالجة - لكن الغالب الكثير فيه إفراده ، مع ملاحظة أن الكلمة جامدة ، لا تتصرف بوجه من الوجوه ، والمعنى المتناسب هنا هو ظهور هذا المخلوق من بين تراب وماء ، أي : من طين ، كما ورد ذلك في الإسراء ، والأنعام ، والصافات ، وكان خلقه بكل بساطة كما ظهرت النباتات ، وهو قوله تعالى في سورة نوح (السبعين نزولاً) : {{ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا 17 }}- سورة نوح .

ومع أن كل حيوان أو طير أو حشر - إلى آخر سلسلة الكائنات - هو من طين ، فإن البشر هو أبرز هذه المخلوقات ، وأكدها وجوداً ، فلذلك أطلق عليه في القرآن (البشر) .. أي : الظاهر على كل الكائنات الطينية .. يسخرها لخدمته ، ويستمد منها قُوتهُ وقُوَّتَهُ ، ويصارع وجودها تأميناً لوجوده .

وربما كان إطلاق كلمة (بشر) أيضاً بهذا المعنى ، وهو (الظهور) - مقابلاً لما يتصف به عالم الملائكة ، وعالم الجن ، من عدم الظهور ، فهم خلق لا يُرَى ، وقد قرر القرآن ذلك بشأن (الجن) ، إذ هي كلمة مشتقة من معنى : (الاجتنان) وهو الاستتار ، والله يقول عن الشيطان وقبيله : {{ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ... 27 }} ، فالظهور في البشر ، والخفاء في الجن - هما حقيقة الحياة التي تعمر هذه الأرض ، على اليابسة ، والماء ، وفي جو السماء

الظهور في البشر ، والخفاء في الجن - هما حقيقة الحياة التي تعمر هذه الأرض ، على اليابسة ، والماء ، وفي جو السماء .
والعجيب أن للعربية هنا تميزاً وتفوقاً على اللغات الأخرى ، فقد حققت بهذا اللفظ (بشر) ، تطابقاً عجيباً مع معناه ، وكأنما كانت تستملي الغيب ، وتستقريء أستاره ، ليمنحها هذه اللفظة ، دون اللغات الأخرى في الفصيلة السامية ، بل دون ما عهدنا من اللغات الأوروبية .

فاللغات السامية كالسريانية ، والحبشية ، والآرامية - لا تعرف كلمة (بشر) ، بل ولا تعرف كلمة (إنسان) ، وإنما المستخدم فيها هو مايؤخذ من كلمة (آدام) ، أو (بني آدام) ، وقد عرفت العبرية هاتين الكلمتين فعلاً للدلالة على (الإنسان) ، وأما (بشر) فقد جاء في سفر التكوين لفظها بالسين (بسر) ، وهي بمعنى (لحم) ، وبمعنى (نفس) في عبارة العهد القديم : (كل بسر حي) ، أي : كل نفس حية .

غير أن هذه الكلمة (بسر) على خلاف القاعدة الغالبة بين العربية والعبرية ، فنحن نعرف أن ما ينطق بالســين في العربية هو في العبرية بالشــين ، مثل سلام وشالوم ، وسماء وشماي ، وطرداً لهذه القاعدة كان الأنسب أن تكون بالســين في العربية وبالشــين في

. العبرية ، لكن ماحدث هو العكس
هذا من ناحية اللفظ ، وأما من ناحية المعنى فهناك إختلاف كامل بين معنى الكلمة (بشر) في العربية ، ومعنى (بسر) في العبرية .. وهي علامة إستفهام
. تحتاج إلى إجابة حاسمة
وفي الفارسية أستخدمت الألفاظ العربية ، مع كلمة (مَردْ) ، وهي الوحيدة في اللسان الفارسي بمعنى (رجل ونفر وشخص وإنسان) ، وهي أيضاً كلمات
. مستخدمة فيها

وفي اللغة الأردية أستخدمت كلمة (آدمي) في ترجمة
.(كلمة (بشر) ، واستخدمت كلمة (إنسان

وأما في اللغات الغربية فمنها الإنجليزية ، وقد
بمعنى (بشر وإنسان) ، (man) استخدمت كلمة
وقد استخدم محمد بكثال في ترجمته للقرآن كلمة
بمعنى (man بمعنى (بشر) ، وكلمة mortal
إنسان) ، في حين استخدم المترجم عبدالله يوسف كلمة
في كلا المعنيين ، كذلك في الفرنسية والمجرية man
. والتركية ..إلخ

ومهما تتبعنا ترجمات القرآن في اللغات المختلفة فإننا لا نجد سوى كلمة منه في مراجعتنا لمجموعة الترجمات التي أصدرها مجمع الملك فهد ابن عبدالعزيز بالمدينة المنورة ، وقد بلغت عدتها تسع عشرة ترجمة باللغات

الإسلامية وغيرها ، وهو دليل على أن مترجمي القرآن لا يجدون في لغاتهم سوى كلمة واحدة للمعنيين ، وهي دائماً بمعنى (إنســـــــان).

استعمالات القرآن لكلمة (بشر)

ولو أننا تابعنا استعمال القرآن لهذه الكلمة فسنجد أنها استخدمت في نفس السياق ، وبنفس المعنى (مخلوق ظاهر مع حسن وجمال) ، في أربعة مواضع هي قوله تعالى (على ترتيب النزول) :

1 - {{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ 71 }} - ص
2 - {{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا 54 }} - الفرقان
3 - {{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ 28 }} - الحجر
4 - {{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ 20 }} - الروم

أما بقية المواضع فقد استخدمت فيها الكلمة بمعنى عام ، هو (مخلوق غير متميز) ، أو بمعنى أعم : (مخلوق) ، فإذا أريد تمييز هذا المخلوق ألحقت الكلمة بوصف مميز ، كما في قوله تعالى : {{ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا

17 }} - مريم . ، أي : مخلوقاً معتدلاً ، لا إفراط ولا تفريط ، وقوله تعالى : {{ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً 93 }} - الإسراء ، أي : مخلوقاً مرسلاً من الله ، وقوله تعالى : {{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ .... 6 }} - فصلت ، فهو مخلوق متميز على كل المخلوقات بالوحي المنزل .

وقد يُضْمَرُ الوصف ويبرزه السياق ، كما في قوله تعالى : {{ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ 31 }} - يوسف ، فمع أن كلمة (بشراً) هنا نكرة ، فإن السياق يفيد أن المشار إليه ، وهو (الجمال) ليس جمال مخلوق بشر .. بل هو جمال ملك كريم ، وهي جملة تأتي على سبيل المبالغة ، وإلا فالملك الكريم مخلوق أيضاً كالبشر ، والمعنى في النهاية : هذا بشر جميل فائق الجمال ، حتى فاق جنسه ، ودخل في جنس آخر أجمل وأرقى .

وقد جاء استخدام اللفظة بالمعنى العام في قوله تعالى : {{ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ... 24 }} - القمر ، وهو إنكار من قوم ثمود أن يكون صالح بشراً متميزاً عليهم ، وهو قول تكررت روايته في القرآن في نفس السياق القصصي : {{ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ... 154 }} - الشعراء ، فعدم التميز هنا يعتبر وصفاً كالتميز تماماً .

واستخدمت الكلمة بالمعنى الأعم في مثل قوله تعالى

على لسان مريم : {{ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ... 20 }} - مريم ، أي : مخلوق على الإطلاق .

ولم تخرج الكلمة في الاستعمالات القرآنية عن هذا الإطار ، مع ملاحظة أنها وردت في الوحي المكي في سبعة وعشرين موضعاً ، ولم ترد في الوحي المدني إلا في أربعة مواضع ، مقتصرة على إفادة معنى (مخلوق) فقط ، وهي الآيـات :

1 - {{ قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ... 47 }} - آل عمران .
2 - مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ... 79 - آل عمران .
3 - فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ... 6 - التغابن .
4 - بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ... 18 - المائدة .

وخلاصة القول أن الكلمة جاءت في القرآن بمعان أربعة :

الأول : البشر هو : الظاهر على كل الكائنات (وهو المعنى الأصلي)

الثاني : المخلوق بإطلاق (وهو المعنى الأعم)

الثالث : المخلوق غير المتميز (وصف سلبي)

(الرابع : المخلوق المتميز (وصف إيجابي

ومن الواضح أن المعنى الأصلي الحقيقي هو المعنى الأول ، أما المعاني الثلاثة الأخرى فهي معاني سياقية يمكن إعتبارها توسعاً في استخدام المعنى الأصلي ، . وهو فيما لاحظنا أكثر شيوعاً في الإستعمال القرآني

{{ الفصل السادس من الباب الأول }}

أولاً : حقيقة الطين

أما الطين فقد جاء في مواضع مختلفة بهذا اللفظ ، والمقصود به إجمالاً : (تراب + ماء) . وقد بادر النص الكريم إلى ذكر (الماء) أصلاً لخلق البشر - والماء أحد طرفي المعادلة - في قوله تعالى في سورة الفرقان (الحادية والأربعين نزولاً) قال سبحانه : {{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ... 54 }} - الفرقان . ، وهي إشارة تدخل في عموم قوله تعالى : {{ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... 30 }} - الأنبياء . ، وسورة الأنبياء هي الثانية والسبعون نزولاً ، إلى أن ينزل النص الكريم بتفصيل حاسم في سورة النور ، وهي السورة الثانية بعد المائة ، فيقول سبحانه : {{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى

بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ... 45 }} - النور . ، وليس وراء ذلك شكل من أشكال الحياة فيما يدب على الأرض ، وإن تنوعت الأشكال فيما لا يدب على الأرض .

وَعَوْدٌ إلى سورة الفرقان - الحادية والأربعين نزولاً - والتي ذكر فيها (الماء) أصلاً للبشر - لنجد أن السورة التالية لها مباشرة في التنزيل ، وهي الثانية والأربعون (سورة فاطر) - تذكر (التراب) ، وهو الطرف الثاني للمعادلة الطينية ، فيقول سبحانه : {{ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ 11 }} - فاطر . ، وهي آية تتضمن الكثير من إختصاصات القدرة الإلهية ، ففيه - إلى جانب (التراب) و (النطفة) - إشارة إلى الزوجية {{ ثم جعلناكم أزواجاً }} ، وكأنها تفسير بوجه آخر لعبارة السورة السابقة (الفرقان) التي ذكرت {{ فجعله نسباً وصهراً }} .. أي : في شكل أزواج تتكامل فيما بينها ((لا يرد على هذا ما توصل إليه العلم أخيراً في مجال استنساخ الحيوان ، وهو ما فوجيء به العالم في قضية النعجة (دوللي) ، فإن إشارة القرآن إلى إنتاج الإنسان عن طريق الزوجية تعبير عن الطريق الرسمي لعبور الأناس إلى مجال الحياة المرضية ، وهو لا ينفي وجود طرق أخرى يحاول العلم معرفتها)) .

ثم تكتمل معادلة الطين بردها إلى الأرض ، باعتبارها منبت الخلق ، وذلك في سورة (طه) الرابعة والأربعين نزولاً) ، فيقول سبحانه : {{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى 55 }} - طه . ، كما قال في السورة السبعين نزولاً (نوح) : {{ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا 18 }} - نوح . ، ويتكرر ذكر التراب بعد سورة (فاطر) في سورة الكهف (الثامنة والستين نزولاً) ، في قوله تعالى : {{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا 37 }} - الكهف . ، وهكذا يقدم القرآن الحقيقة إجمالاً ، ثم يفصلها تدريجياً على مسار الوحي .

ويتعرض القرآن في سورة الحجر ، وهي السورة الثالثة والخمسون نزولاً ، وذلك في الآية الثامنة والعشرين - يتعرض لبعض أوصاف الطين : المادة البشرية ، وهي قوله تعالى :
{{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ 28 }} - سورة الحجر . ، لقد زادت هذه الآية المادة وضوحاً حين ذكرت أن الطين كان في شكل (صلصال من حمأ مسنون) ، و (الصلصال) هو الطين اليابس ، أو هو الطين الحر خلط بالرمل ، فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو فخار ،

وآية سورة الرحمن (السادسة والتسعين نزولاً) : {{ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ 14 }} - الرحمن . ، تنفي عن الصلصال أن يكون طبخ بالنار ، وإن شَبَّهَتْهُ بالفخار في جفافه ، والحمأ : هو الطين الأسود ، والمسنون : هو المبتل المنتن ، وقد زاد من صفات هذا الطين في سورة الصافات (الخامسة والخمسين نزولاً) فذكر أنه : {{ طِينٍ لَّازِبٍ 11 }} - الصافات . ، بمعنى : متلاصق أملس متماسك .

وسواء - في الحقيقة - أن يستخدم القرآن في تعبيره عن أصل البشر ، الأرض أو التراب ، أو الطين ، أو الصلصال ، أو الحمأ المسنون ، فكل ذلك لا يختلف ، لأن المكونات واحدة تماماً ، في التراب وأشكاله السابقة ، وفي الجسد البشري أو المادة الحية .

يقول الأستاذ البهي الخولي : (لو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوي لوجدتها تتركب من ستة عشر عنصراً ، ولو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركب من ستة عشر عنصراً - هي نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض ، وهذه العناصر هي ما يأتي :

1 - 63.03 = الأكسجين %
2 - 20.20 = الكربـــــــون %

3 - الأيدروجين = 9.90 %
4 - النيتروجين = 2.50 %
5 - الكلســــيوم = 2.45 %
6 - الفســـــفور = 1.01 %
7 - الكـــــلور = 0.16 %
8 - الفـــــلور = 0.14 %
9 - الكبـــريت = 0.14 %
10- البوتاسيوم = 0.11 %
11- الصـوديوم = 0.10 %
12- المغنسيوم = 0.07 %
13- الحـــــديد = 0.01 %
اليود + السليكون + المنجنيز = آثار ضئيلة
أنظر آدم عليه السلام - للبهي الخولي ص 15 وما بعدها)
(

وقد تبين من جمع النسب المختلفة أن الآثار الضئيلة من (اليود ، والسليكون ، والمنجنيز) لا تتجاوز 0.18 % للمواد الثلاث ، وقد أضافت قوائم أخرى مواد أرضية دخلت في تكوين الإنسان ، وهي النحاس والكوبالت ، والتوتيا ، والموليديوم ، والألمونيوم ، والسيلنيوم ، والكادميوم ، والكروم ، وبذلك تصل العناصر الترابية في الإنسان إلى أربعة وعشرين عنصراً .

فخلق البشر كان من معدن الأرض ، كما قال سبحانه

وتعالى في السورة الثانية والعشرين نزولاً - أي في الوحي المكي المبكر - : {{ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ... 32 }} - سورة النجم . ، أي : من معدن الأرض ، وهو الصلصال المأخوذ من الطين الأسود المنتن - هكذا شاءت إرادة الله ، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة ، أو أن يكذب بها ، مع أن هناك في مرأى العين مسافة هائلة بين الطين واللحم والبشري .. الطين مادة خامدة ، واللحم البشري نسيج حي متنامٍ ، وهي مسافة لم يقطعها العقل الإنساني حتى الآن ، ولن يقطعها في المستقبل ، بمعنى أن العقل لن يكشف عن سر التحول الذي جعل التراب لحماً حياً متنامياً ، ومن ثمَّ لن يكون بوسع الإنسان - مهما تقدم في دراساته عن الخلية الحية ، وعن الهندسة الوراثية - أن يحول التراب إلى خلايا حية ، فالمسافة بينهما برزخ يستحيل عبوره على قدرات الإنسان ، لأنها في الواقع تعبير عن أمكانيات قدرة الله المتفردة بالخلق والإبداع ، بالإحياء والإفناء .

هذا عن المسافة بين التراب والمادة الحية ، فأما عن المسافة بين التراب والمخلوق البشري فيقول الأستاذ سيد قطب ، وهو يعلق على قوله تعالى : {{ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ 5 خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ 6 يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ 7 }} - الطارق . ، (فالمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير ، بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، وبين الإنسان المدرك العاقل ،

المعقد التركيب العضوي ، والعصبي ، والعقلي ، والنفسي .. هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق .. توحي بأن هناك يداً خارج ذات الإنسان ، هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ، ولا إرادة ، ولا قدرة في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة ، وتشي بأن هناك حافظاً من أمر الله يرعي هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، في رحلتها الطويلة والعجيبة ، وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب ، من مولده (إلى مماته) - (في ظلال القرآن - سورة طارق .

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن الماء قد يقصد به ما يخلط بالتراب ليصير طيناً ، وقد يقصد به الماء المهين الذي يبدو في ظاهره لا علاقة له بالطين ، وإن كان في الحقيقة حافلاً بموجودات ترابية - طينية ، متمثلة في الكائنات الحية التي تعتبر : (كبسولة الحياة) ، ويتحدث العلم عن مئات الملايين من هذه الكائنات الحية في منيّ الرجل .. في الدفقة الواحدة تندفع في رحم المرأة ، في نهاية الإتصال الجنسي .. وكل هذا صادر عن التراب ، وعائد إلى التراب .

ثانياً : الخَلق النفسي

وتبقى بعد ذلك آيتان تحدثتا عن خلق الإنسان من نفس

: واحدة ، وهما
آية الأعراف ، وهي السورة الثامنة والثلاثون نزولاً ..
قوله تعالى : {{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 189 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 190 }} - سورة الأعراف .

وآية النساء ، وهي السورة الثالثة والتسعون نزولاً ..
: قوله تعالى
{{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ... 1 }} - سورة النساء .

والآيتان تقرران وحدة الأصل الإنساني ، إذ المخاطب ها هنا هو الناس ، كما هو نص الآية الثانية ، وكما هو مفهوم الآية الأولى ، لأن الخطاب في القرآن لم يوجه مطلقاً إلى البشر .. بل إلى الإنسان ، وبديهي أن نعرف أننا جميعاً منتمون لآدم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم لآدم) ، أي : لآدم وحواء ، باعتبارهما المصدر الوحيد الذي تناسلت منه كل الزريات الإنسانية .

غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل ، فهل حواء من

ضلع آدم كما وردت بذلك آثار ؟ أو أن حواء خلقت مستقلاً ، كما هو شأن آدم ؟
الإحتمال الأخير هو الراجح في نظرنا لأمرين :

أولـهما : أن كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها .

ثانيهما : أن خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه ، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج في قوله تعالى : {{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ... 21 }} - سورة الروم .

ومن المؤكد أن المقصود بآية الأعراف ليس آدم وزوجه ، لأن الآيات بعدها تتحدث عن أن الزوجين جعلا لله شركاء فيما آتاهما من الذرية ، ولم يكن هذا من آدم وزوجه .

وتبقى آية النساء معبرة عن الأصل النفسي الذي انبثقت منه كل النفوس ، وعلى الرغم من إختلاف الأقوال في حقيقة هذه النفس ، فإننا نميل إلى أنها هي سر الله في الإنسان ، وبها صار إنساناً ، دونما سواه ، فالخلق فيما انتهى إليه تأملنا في هذه المسألة يتم على مستويين :

خلق مادي من تراب ، وهو الخلق البشري الظاهر .

وخلق نفسي من روح الله ، وهو الخلق الباطن ، ونحن على يقين من أنه لولا تلك النفخة الإلهية لما كان ذلك المخلوق سوى دابة من دواب الأرض .

فلماذا أغرق العلماء أنفسهم في البحث عن ماهية النفس ، دون أن يصلوا فيها إلى شيء ، مع أن الحقيقة واضحة بين أيديهم ، وهي في غاية الوضوح بقدر ما هي في منتهى الغموض ؟!!

إنها غيب من غيب الله ، وسر من أسراره ، وهذا هو الوضوح الذي نقصده ، كالكهرباء لا تعرف حقيقتها إلا بآثارها ، والعقل والروح والنفس قوى أودعها الله كيان هذا الإنسان - لا تدرك حقائقها ، وإن استدل على وجودها بآثارها ، ومن آثارها أن تنبثق منها زوج الرجل التي يسكن إليها .

{{ الفصل السابع من الباب الأول }}

البشر والإنســــان

إذا كان القرآن قد ذكر خلق (البشر) في أربع آيات ، فقد ذكر خلق (الإنسان) في خمس وثلاثين آية ، هي على ترتيب النزول موزعة بين المكي والمدني :
فالآيات المكية هي :

: في السورة الأولى - 1

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }}
2 {{
. سورة : العلق

****

: وفي السورة السابعة - 2

{{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى 1 الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى 2 }}
. سورة : الأعلى

****

: وفي السورة السابعة والعشرين - 3

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ 4 ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ }}
{{ سَافِلِينَ 5
. سورة : التين

****

: وفي السورة الثلاثين - 4

{{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى 36 أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى 37 ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى 38 فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى 39 }}
سورة : القيامة .

****

5 - وفي السورة الثانية والثلاثين :

{{ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ 20 فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 21 إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ 22 فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ 23 }}
سورة : المرسلات .

****

6 - وفي السورة الثالثة والثلاثين :

{{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ 16 }}
سورة : ق .

****

7 - وفي السورة الخامسة والثلاثين :

{{ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ 5 خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ 6
يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ 7 }}
. سورة : الطارق

****

: وفي السورة الثامنة والثلاثين - 8

{{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ
لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ... 11 }}
. سورة : الأعراف

****

: وفي السورة الأربعين - 9

{{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُّبِينٌ 77 وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... 78 }}
. سورة : يس

****

: وفي السورة الثانية والأربعين - 10

{{ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

{{ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ... 11
. سورة : فاطر

****

: وفي السورة الثالثة والأربعين - 11

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }}
67 }}
. سورة : مريم

****

: وفي السورة الرابعة والأربعين - 12

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }}
55 }}
. سورة : طه

****

: وفي نفس السورة - 13

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا }}
115 }}

. سورة : طه

****

: وفي السورة الخامسة والأربعين - 14

أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ 58 أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ }}
{{ 59
. سورة : الواقعة

****

: وفي السورة التاسعة والأربعين - 15

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ }}
{{ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا 61
. سورة : الإسراء

****

: وفي السورة الثالثة والخمسين - 16

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }}
{{ 26
. سورة : الحجر

****

: وفي السورة الرابع والخمسين - 17

}} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى
عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ 2 {{
. سورة : الأنعام

****

: وفي السورة الخامسة والخمسين - 18

}} فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن
طِينٍ لَّازِبٍ 11 {{
. سورة : الصافات

****

: وفي السورة التاسعة والخمسين - 19

}} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ... 67 {{
. سورة : غافر

****

: وفي السورة الثامنة والستين - 20

قالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن }}
{{ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا 37
. سورة : الكهف

****

: وفي السورة التاسعة والستين - 21

{{ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ 4 }}
. سورة : النحل

****

: وفي السورة السبعين - 22

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا 13 وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا }}
{{ 14
. سورة : نوح

****

23 - وفي نفس السورة :

{{ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا 17 ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا 18 }}
سورة : نوح .

****

24 - وفي السورة الثالثة والسبعين :

{{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ 12 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ... 14 }}
سورة : المؤمنون .

****

25 - وفي السورة الرابعة والسبعين :

{{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ... 9 }}
سورة : السجدة .

****

26 - وفي السورة الحادية والثمانين :

{{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ 6 الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ 7 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ 8 }}
سورة : الانفطار .

****

27 - وفي السورة الثالثة والثمانين :

{{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ... 40 }}
سورة : الروم .

****

28 - وفي نفس السورة :

{{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ... 54 }}
سورة : الروم .

****

****

: والآيـــــات المدنية هي

: في السورة السابعة والثمانين - 29

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً }}
30 ... {{
. سورة : البقرة

****

: وفي السورة الثالثة والتسعين - 30

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ }}
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ...
1 {{
. سورة : النساء

****

: وفي السورة الثامنة والتسعين - 31

{{ خَلَقَ الْإِنسَانَ 3 عَلَّمَهُ الْبَيَانَ 4 }}
. سورة : الرحمن

****

32 - وفي نفس السورة :

{{ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ 14 }}
سورة : الرحمن .

****

33 - وفي السورة التاسعة والتسعين :

{{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا 1 إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا 2 }}
سورة : الإنسان .

****

34 - وفي السورة الخامسة بعد المائة :

{{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ... 5 }}
سورة : الحج .

****

: وفي السورة الثامنة بعد المائة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ }}
{{ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... 13
. سورة : الحجرات

****

ويلاحظ في نصوص هذه الآيات أن (خلق الإنسان) جاء بلفظه في ستة عشر موضعاً ، وأن بقية المواضع - وهي تسعة عشر موضعاً - يدل السياق فيها على أن المراد بها هو (الإنسان) ، وليس (البشر) ، حيث اكتفى النص بالإشارة دون العبارة ، أو جاء الخطاب للناس لا للإنسان ، أو كان النص على آدم ، وهو - فيما نرى - أول إنسان ، وكل ذلك جاء في سور : (الأعلى ، والمراسلات ، والأعراف ، وفاطر ، وطه - في موضعين - وفي الإسراء ، والأنعام ، والصافات ، وغافر ، والكهف ، ونوح - في موضعين - والروم ، والبقرة ، والحج ، والحجرات ، وانفردت الواقعة بدعوة . (الناس إلى التأمل فيما يفرزون من منيّ

ولسوف يتضح لنا فيما بعد - أن المراد في هذه المواضع هو (الإنسان) ، وليس البشر ، والآيات

الست عشرة تتحدث عن (خلق الإنسان) تارة من علق ، وأخرى من نطفة ، أو من (نطفة أمشاج) ، وثالثة من (طين) ، أو من (سلالة من طين) ، أو من (صلصال من حمأ مسنون) أو من (صلصال كالفخار) - هو من صلصال ، وليس فخار ، لأن الفخار هو الطين المحروق ، وكأن التشبيه يحتفظ في السياق بهذا الفرق في الدالة .

وتأتي آية سورة الحج (السورة الخامسة بعد المائة) فتخاطب الناس نصاً وصراحة ، فتقول : {{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ... }} إلى آخر الآية وهي تجمع إشارتين إلى الأصل الأول ، وهو التراب ، وإلى الأصل البديل ، وهو النطفة .

و (الناس) : اسم جمع لبني آدم ، مفرده (إنسان) من غير لفظه .

القرآن المــكي

فإذا تابعنا بناء السورة التي تأتي لبناتها في الآيات المكية المتتابعة وجدنا الحديث عن البداية المرئية للإنسان ، وهي (العلق) في السورة الأولى ، ثم تأتي إضافة في السورة السابعة ، تشير إلى {{ الَّذِي خَلَقَ

فَسَوَّى }} ، ثم تأتي لمحة عن المستوى الأخلاقي - في السورة السابعة والعشرين - فهو قد خُلق أولاً {{ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }} ، ثم ارتد إلى {{ أَسْفَلَ سَافِلِينَ }} ، ثم استثنى من هؤلاء السفلة جماعة {{ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }} ، وهي رسالة موجهه إلى معارضي الدعوة والمكذبين بالدين من كفار قريش .

ويعود الوحي إلى بيان آليات الخلق في السورة الثلاثين (القيامة) : مني يفرز نطفة تتحول إلى علقة تحمل عناصر الذكورة والأنوثة ، بحسب تقدير الله وتحديده للنوع ، وتشير السورة الثانية والثلاثون (المرسلات) إلى نفس المعنى ، لكنها تذكر المكان الذي تتم فيه عملية الخلق ، وهو (القرار المكين) أو (الرحم) .

ثم يأتي الحديث في السورة التالية مباشرة ، وهي الثالثة والثلاثون (ق) ليؤكد حضور الله سبحانه وتعالى في وجود هذا الإنسان ، وهو ملمح تربوي ، يستطرد بعده الوحي في السورة الخامسة والثلاثين (الطارق) ليقرر أن هذا الخلق العظيم ، (خلق الإنسان) {{ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ 6 يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ 7 }} - سورة الطارق ، والصلب : فقار الظهر ، وهي منبع الماء الدافق عند الرجل ، والترائب : جمع .. مفرده تريبة ، وهي عظام الصدر مما يلي الترقوتين ، وهي منبع ماء المرأة ، وهذه المعلومة كانت مجهولة للإنسان ، وبقيت مجهولة حتى منتصف القرن العشرين ، وقد

تضمنها الوحي القرآني منذ أوائل هذا الوحي ، أي منذ : أكثر من أربعة عشر قرناً .

ثم تأتي السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) لتتحدث عن الخَلق والتصوير {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ }} ، وهما مرحلتان في عمر البشرية ، لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين ، والتصوير هنا يقابل التسوية في مواضع أخرى ، ومع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التي تفيد التراخي بين الأمرين ، وهو ماسنفرد له معالجة أخرى .

وتنزل في السورة الأربعين (يس) إشارة إلى مايسبق العلق ، وهو (النطفة) مرة أخرى ، ولكن يقرن ذلك بالعجب من أن لا يعرف هذا المخلوق قدره في مواجهة خالقه .. {{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ 77 وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ 78 قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ 79 }} - سورة يس .

ويواصل الوحي تعريف الإنسان بأصله في السورة الثانية والأربعين (فاطر) فيجمع لأول مرة بين التراب والنطفة ، ويضيف آية من آياته ، وهي خلق الزوج ليأتلف مع زوجه ، وهو يتابع بعلمه مايتم بين الأزواج ، وما يترتب عليه من حمل ووضع ، كما يتابع الأعمار - طويلة وقصيرة .

ثم يساعف التنزيل ذلك الإنسان فيخاطب عقله وذاكرته في السورة الثالثة والاربعين (مريم) ويسأله عن مرحلة ما قبل وجوده ، إن كان لديه شيء يذكره غير العدم : {{ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }} ، فالآية ترد الإنسان إلى ما سبقه من عدم ، وهو أنصع برهان على أنه مُحْدَثٌ بيد القدرة ، وهي إشارة تشبه إلى حد كبير ما استهلت به سورة (الإنسان) - التاسعة والتسعون (المدنية) .

ويلي سورة (مريم) في ترتيب النزول (طه) وهي السورة الرابعة والأربعون ، وذلك في قوله تعالى {{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }} ، وكأنها تدل الإنسان الباحث عن مبدأ خلقه إلى نقطة البداية التي ليس وراءها شيء يذكره مهما حاول .

فإذا نظر الإنسان إلى الأرض - ومنها خلقه الأول - أدركه - سؤال السورة الخامسة والأربعين (الواقعة) ليقرب إليه صورة من الحقيقة . {{ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ؟؟}} .

فإذا نظر إلى الأرض ليبحث عن أصله فليعلم أن جزءاً من هذه الأرض قفز إلى صلب أبيه ، وترائب أمه ، فلقحت - فيهما - الأرضُ الأرضَ ، فكان ذلك المخلوق الباحث عن الحقيقة ، يحسبها بعيدة ، وهي بين يديه ،

وفي إهابه {{ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ 21 }} - الذاريات .

الإنسان يخرج من البشر

وهنا يأتي النص الكريم في السورة الثالثة والخمسين (الحجر) ليرد الإنسان إلى أصل (البشر) : {{ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }} ، ولما كان السياق في السورة يذكر (الإنسان) في مقابل (الجان) في آيتي الحجر : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }} ، فإن الحديث عن الأصل الترابي يرتبط غالباً (بالبشر) ، ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول : {{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ 28 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ 29 }} - الحجر.
والربط بين (الإنسان) و (الصلصال) سياق تتولى تفسيره الآيات التالية التي تحدد المراد بالإنسان ، وهو (البشر) .

وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سَوْق الحقيقة هنا ، فهو يذكر (الإنسان) هكذا معرفاً ، باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر ، والمخاطب بالآيات ، وهو في مقابل (الجان) المشارك للإنسان في التكليف والمسئولية على هذه الأرض .

فإذا شرع في بيان حقيقة الخلق منذ البداية ، ذكر أن هذه البداية كانت في صورة (بشر) .. هكذا مُنكَّراً .. باعتباره النموذج الذي أجريت عليه عمليات التسوية ، والتصوير ، والنفخ من روح الله (أو التذويد بالملكات العليا التي كان بها البشر إنساناً - وهي العقل ، واللغة ، والدين) .

فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنساناً .. بل كان بداية خلق إنسان في حيز القوة ، قبل أن يكون إنساناً في حيز الفعل .

لم يكن أحد من الجن أو الملائكة يعلم شيئاً عن سر ذلك المخلوق البشري ، أو عما سيؤول إليه أمره ، فذلك كله كان غيباً في علم الله وحده ، وهو من إختصاص قدرته التي تابعت تنفيذ المخطط ، وتحقيق التسويات المطلوبة عبر الأجيال ، كما زودته تلك القدرة العظمى بعوامل التألق حتى صار البشر الغشيم (إنساناً) صالحاً للتكليف ، وحمل الأمانة الإلهية .

وكل ذلك الفرق الهائل بين البشر والإنسان يشي به الإستعمال القرآني ، وهو فرق ما بين التعريف والتنكير في هاتين الآيتين من سورة الحجر .

ويرد هذا المعنى إجمالاً للتذكير في سورة (الأنعام)

التي جاءت بعد الحجر مباشرة وهي الرابعة والخمسون : {{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ }} ،.. فهو (طين لازب) ، كما في السورة التالية مباشرة (الصافات) ، غير أن بقية آية الأنعام تتحدث كما رأينا عن (أجلين) في قوله تعالى : {{ ثُمَّ قضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ }} ، وقد كان تحديد المقصود بالأجلين موضع اجتهاد المفسرين ، فحصروه في ثلاث احتمالات :

فإما أن يكون الأجل الأول : أجل الموت ، والآخر : القيامة ..

وإما أن يكون الأول : ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثاني : ما بين الموت إلى البعث (وهو البرزخ) .

وقيل الأول : النوم ، والثاني : الموت (الكشاف 2 / 4) .

وذكر تفسير المنار (7 / 248) أن الأجل الثاني هو أجل حياة مجموع الناس الذي ينقضب بقيام الساعة ، وقيل : الأجل الخاص بكل فرد ، والأجل العام وهو عمر الدنيا .

ونحسب أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات ، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشرية

السابقة على العهد الإنساني ، وأما الأجل المسمى ، فهو أجل كل فرد من المكلفين ، فالأول مجمل يندمج فيه الكل في واحد ، والثاني مفصل لكل فرد ، لتعلقه بالمسئولية والحساب والمصير ، ولا مانع في نظرنا من إرادة ذلك في الآية .

ثم تأتي السورة التاسعة والخمسون (غافر) فتربط لأول مرة بين التراب والنطفة والعلقة : {{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا }} ، وهنا يذكر المرحلتين : مرحلة الخلق من تراب ، ومرحلة الخلق من نطفة ، وهما مرحلتان منفصلتان في الظاهر ، وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخي (ثم) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما .

ويلاحظ أن هذا الموضوع لم يرد له ذكر في القرآن بعد سورة غافر ، إلا بعد عشر سور .. أي : حتى نزلت سورة (النحل) بإشارتها المقتضبة : {{ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }} ، وهي السورة التاسعة والستون ، ثم تتنزل السورة الحادية والسبعون ، سورة (نوح) وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معاً ، هي قوله تعالى : {{ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا }} ، فمن الناحية التاريخية : ، قد يراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التي مر بها خلق البشر ، وتقلبهم في أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله : {{ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصـرَ وَالأَفْئِدَةَ }} ، ومن الناحية المادية : ،

قد يراد بالأطوار ما جاء بعد ذلك مباشرة من حديث القرآن عن الجنين وأطواره في (القرار المكين) وهو رحم الأم ، فحديث سورة (المؤمنون) هو بمثابة الإجابة عن سؤال نَجَمَ عن ذكر الأطوار في سورة نوح .. ماهي هذه الأطوار ؟؟ .. فجاء الرد في السورة الثالثة والسبعين (المؤمنون) ، وذلك في قوله تعالى : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ }} ، وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين في عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت من (طين) ، أي : إنه لم يخلق مباشرة من الطين ، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) ، وكان ذلك منذ ملايين السنين .

وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه السورة الخامسة والسبعون (السجدة) وهي إضافة مهمة للرد على السؤال المثار عن المقصود بـ (الأطوار) في السورة الرابعة والسبعين .. يقول الله سبحانه وتعالى : {{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ... 9 }} - السجدة .

فخلق الإنسان (بدأ من طين) ، أي : عند البداية البشرية ، ثم استخرج الله منه نسلاً {{ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ }} ، ثم كانت التسوية ونفخ الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة .

وحسبنا أن نلاحظ هنا ما يشير إلى بعض مراحل التسوية في قوله تعالى : {{ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصـرَ وَالْأَفْئِدَةَ .. 9 }} - السجدة . ، فقد تم هذا الجَعْلُ خلال مراحل التسوية ، وهو مايفترض أن (البشر) كان في المراحل الأولى بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد (عقل) ، تماماً كما هو حال المولود ، حين يخرج من بطن أمه .. لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل .. لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات في المرحلة الأولى من الوجود ، فكل ما يحتاجه الوليد هو أن تكون له شفتان ، يمتص بهما غذاءه من ثدي أمه ، وبعد فترة - وبالتدريج - يبدأ في استخدام عينيه وأذنيه وعقله في التعامل مع ما حوله من عناصر الحياة ، وهو قوله تعالى : {{ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78 }} - النحل .

لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ، ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تذود هذا المخلوق البشري بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

بيد أن الحديث في السورة الرابعة والسبعون (المؤمنون) لم يقتصر على الإشارة التاريخية السابقة .. بل قدم وصفاً ومتابعة لأطوار تكوين الجنين ، وهو

إضافة لم تسبق في أي سياق مكي ، فقال سبحانه : {{ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ 14 }} - المؤمنون .

لقد مر النص الكريم بالمراحل المختلفة التي تبدأ بالنطفة ، وتنتهي بالإنسان ، في هذا الأيجاز المحكم الذي يتضمن حقائق الأطوار في ذلك القرار المكين .. رحم المرأة ، وهكذا عَبَرَ البشر كل الأطوار ، فصار خلقاً آخر : (إنساناً) {{ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }} .

وقد نلاحظ هنا أن نص (السجدة) يتلاقى مع هذا النص ، مع فارق الإجمال والتفصيل ، ومع انفراد سورة (المؤمنون) بمراحل التكوين الجنيني ، وانفراد سورة (السجدة) بمراحل التكوين الطيني .

ويبقى من الوحي المكي ماورد في السورة الثانية والثمانون (الانفطار) من قوله تعالى : {{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ 6 الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ 7 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ 8 }} - الانفطار .

وأيضاً ما ورد في السورة الرابعة والثمانين (الروم) من قوله تعالى : {{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ

مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ 54 }} - الروم . ، وهما تنزيلان وردا في مقام التذكير بقدرة الله ، وهيمنته على الإنسان ، ومشيئته المطلقة .. {{ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ}} ، (يخلق ما يشاء) ، وتنفرد الآية الأولى بمفهوم قوله : {{ فَعَدَلَكَ }} ، وهو معنى خاص باختياره الصورة التي يظهر بها الإنسان على الأرض ، بين سائر الصور ، وتنفرد الآية الثانية بذكر الضعف والقوة ، وضابطهما من المشيئة الإلهية ، فلا ضعف إلا بمشيئته ، ولا قوة إلا باختياره وإرادته {{ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }}.

. وبذلك ينتهي الحديث المكي عن خلق الإنسان

القرآن المـــدني

ثم تأتي المرحلة المدنية ، وتبدأ بالسورة السابعة والثمانين (البقرة) ، فتذكر مرحلة أخرى من مراحل الملحمة الخالدة ، دون أن تذكر (البشر أو الإنسان) .. بل هي تركز على (آدم) الذي يهيأ لوظيفة (الخلافة) (البقرة : 30 وما بعدها) وهو من أجل ذلك يعلم من اللغة ما لم تعلمه الملائكة ، وسيأتي في ذلك حديث . .. وفي السورة الثامنة والتسعين (الرحمن) إشارتان

أولاهما : ، إلى علاقة الإنسان باللغة في مستواها البياني : {{ خَلَقَ الْإِنسَانَ 3 عَلَّمَهُ الْبَيَانَ 4 }} - الرحمن .

وثانيهما : ، مذيد من التعريف بالصلصال الذي ذكر في السورة المكية (الحجر) على أنه : {{ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }} ، فتصفه بأنه : {{ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ }} ، وذلك في مقابل أن الجان خلقوا {{ مِن مَّارِجٍ مِنّ نَّار }} ، كما سبق أن قابل (الحمأ المسنون) بـ (نار السموم) في سورة الحجر أيضاً ، وللتكرار هنا فائدة هي مذيد من التعريف بطبيعة المادة التي هي أصل الخلق ، وهي (الطين اللازب) كما جاء في سورة الصافات .

وتبقى في المرحلة المدنية إشارة سورة (الإنسان) ، وهي السورة التاسعة والتسعون ، وقد جاءت في قوله تعالى : {{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا 1 إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا 2 }} - الإنسان .

وهو كما نرى ، نص يضيف وصفاً تحليلياً للنطفة ، فالأمشاج تطلق على الخلايا الذكرية ، كالحيوان المنوي ، وتطلق على الخلايا الأنثوية ، كالبيضة أو البويضة ، قبل أن تندمجا لتكوين اللاقحة (وهي البويضة الملقحة) التي تكّون الجنين (المعجم الوسيط : مشج) ،

والإنسان خليط من هذه الخلايا ، أو الأمشاج ، وهي حقيقة لم تذكر من قبل في أي سياق ، إلا ما جاء إشارة عامة عن (الماء المهين) ، و (الماء الدافق) من الصلب والترائب .

وأخيراً تأتي السورة الخامسة بعد المائة : (الحج) - لتقدم التقرير النهائي عن قصة الخلق في قوله تعالى : {{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ 5 }} - الحج .

، وهي آية تتضمن تفاصيل مهمة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمضغة ، فليست كل مضغة تتحول جنيناً .. بل قد تكون مخلقة ، وقد تكون غير مخلقة ، وكذلك فيما يتعلق بحياة الإنسان : طفلاً ، فبالغاً ، وقد يحين موته أجَلَئِذٍ ، وقد تمتد به الحياة إلى أرذل العمر ، وهي حقائق سبق الإيماء إليها في سورة (غافر : 61) ، ولكنها جاءت هنا في خاتمة التقرير عن إمكان البعث ، ودفع الريب فيه من العقول والقلوب ، وتلكم هي الغاية التي سيقت من أجلها كل هذه النصوص عن (خلق البشر - الإنسان) :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى }} كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 6 وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ 7 }} - الحج .

وأخيراً ، يختم الوحي حديثه بخطاب عام موجه إلى (الإنسانية) جمعاء ، من كل الألوان ، والأجناس ، والأصقاع ، تحقيقاً لعموم الرسالة ، وتأكيداً لمبدأ المساواة المطلقة بين جميع الناس ، وإعلاناً للقاعدة الإلهية التي سيتم على أساسها محاسبة الخلائق .. يوم الموقف العظيم .. جاء ذلك في سورة الحجرات ، وهي السورة الثامنة بعد المائة ، في قوله تعالى : {{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ 13 }} - الحجرات .

إن هذا البيان الإلهي نداء إلى جميع (الناس) يذكرهم بوحدة الأصل ، فهم جميعاً قد نسلوا من ذكر وأنثى ، هما آدم وزوجه حواء ، باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات (الإنسان) من سلالات البشر ، ولا إلتفات إلى ماسبقهما من السلالات والأجيال ، فهما في الواقع المنبع الذي تدفقت منه جماعات (الناس) على هذه الأرض ، من بني آدم .. أي : من ظهره ، وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ، فهم أصل واحد ، ووجود متنوع ، وعليهم - وقد أدركوا هذه الحقيقة - أن يتعارفوا بحكم ما بينهم من

قرابة ، فلا فضل لأحد منهم على غيره من شركائه في الأصل بأي اعتبار مادي ، وإنما يتفاضلون عند الله بالتزامهم لأوامره ، واجتنابهم لمحارمه ، وطاعتهم المطلقة له ، وبعبارة أوضح : ، بألا يأكلوا من الشجرة التي حرمها عليهم ، شجرة المعصية ، التي حرّمت على أبويهم في الجنة ، وهي محرمة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الـطريــق إلى الجـــنة

ملاحظات على العلاقة بين البشر والإنسان :
حقيقة لا ريب فيها ، هي أن بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقاً ، فـ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض ، يسير على قدمين ، منتصب القامة ، و (الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنسان .
والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذي استعملت فيه الكلمة (بشر) في آيات القرآن ، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال .

وقد جاءت في القرآن كلمة أعمّ من : البشر والإنسان ، وهي كلمة (الأنام) ، وتعني كل مخلوق على ظهر الأرض ، عاقلاً أو غير عاقل ، وإن كان المفسرون

يرون أن الكلمة تعني في قوله تعالى {{ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ 10 }} - سورة الرحمن . : الجن والإنس ، وهما الثقلان المخاطبان ، كما هو وارد في هذه السورة المدنية .

وجاء أيضاً في سورة (البينة) ، وهي سورة مدنية ، وهي السورة الحادية بعد المائة نزولاً - إطلاق لفظة (البرية) على (الخلق) ، والجمع : برايا ، قال الله سبحانه وتعالى في وصف الكافرين والمشركين : {{ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ 6 }} - البينة . ، وقال في وصف المؤمنين : {{ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ 7 }} - البينة .

ونستطيع أن نقرر مع علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن الأرض عرفت هذا الخلق الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين ، تختلف في تقديرات العلم باختلاف عمر الأحافير (الحفريات) ، ونتائج التحليلات العلمية . وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق خطأ أو تجاوزاً لقب : (إنسان) ، فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينيا ، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التي تعني مراحل تكوين (البشر) بإطلاق القرآن ، واستخدام كلمة (إنسان) في وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسيع ، كما استخدمت كلمة (بشر) للدلالة على معنى (الإنسان) توسعاً أيضاً ، وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن ، والذي ينبغي أن يستخدم في تسمية تلك المخلوقات العتيقة التي تدل عليها الأحافير - هو (

البشر) ، فواجب أن يقال : بشر بكين ، وبشر جاوة ، وبشر كينيا ، وبشر النياندارتال .. ألخ .

أما (الإنسان) فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم - على هذا - هو (أبو الإنسان) ، وليس (أبو البشر) ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله ، تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمي الجديد .
اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية ، باعتباره من نسلهم .

ولأمر ما وجدنا أن القرآن لا يخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان ، والتكليف الديني منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) ، فلم يعد للبشر القديم وجود منذ ظهر آدم عليه السلام ، وتناسلت ذريته ، وورثت الأرض وما عليها .

ولأمر ما أيضاً وجدنا أن كلمة (البشر) جامدة لا تتصرف ، اللهم إلا بالتثنية والجمع في قليل الاستعمال ، على حين أن كلمة (إنسان) متصرفة مرنة ، وردت في القرآن بصور مختلفة ، وهي مفرد ، جمعه : أناسين ، وأناسي ، وقد استعمل مصغراً فقيل : أنيسان ، والإنس : اسم جماعة الناس ، والجمع أناس ، والواحد إنسي .

والناس : اسم جمع من النوس ، وهو الحركة .. مفرده : إنسان من غير لفظه ، ويقال للمرأة إنسان ، ولا يقال : إنسانة ، وإن شاعت على ألسنة العامة ، وكل ذلك أكسب الكلمة مرونة في الإستعمال .

وليس يبعد أن نفترض أن الخالق سبحانه - وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض ، والنهوض بأمر الدين ، وإقامة التكاليف ، وفي مقدمتها التوحيد - قدَّرَ سُبْحانه فناءَ كل البشر ، من غير ولد آدم ، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة ، وبدأ الصراع بعد أن أخليت ساحته من العناصر الطفيلية التي لم يعد لها دور .. بل التي انتهى دورها ، ليبدأ على الأرض دور جديد .. لكن ، كيف بدأ هذا الدور ؟ .. أو كيف استهل ذلكم العهد ؟

ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ، ولا دور أيضاً للخيال في رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب ، فذلكم مشهد غيبي تم قبل الزمان الإنساني بزمان إلهي ، حين صدر أمر بأن يكون الكون .. فكان .. كان كل ماكان ، وكل مايكون أو سيكون على طول الزمان ، وبعد أن ينتهي هذا الزمان ، فيبدأ للوجود تقويم زمني آخر {{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 48 }} - سورة ابراهيم .

حينذاك أمر الله سبحانه كل الذراري التي قدر أن تخرج من صلب آدم ، وأصلاب بنيه - أمرها أن تخرج على ساحة الغيب ، وأن تمثل بين يديه ، كانت أنذاك مجرد ذرات لا يحصيها ولا يحصرها حد ، إلا علم الله وحده .. {{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ... 14 }} - الملك . ، و {{ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا 94 وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا 95 }} - مريم .

، وأسرعت الذرات بالمثول أمام الجلال الإلهي ، فألقى الله - سبحانه - على المشهد الهائل سؤالاً واحداً هو الذي من أجله كانت الدعوة إلى الحضور :

قال تعالى : أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ؟

وتلقوا السؤال ووعوه فقالوا جميعاً في صوت واحد : بَلَى .. شَهِدْنَا .

وقال الله مبيناً الحكمة من هذا الحشد : {{ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ 172 أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ 173 }}- الأعراف .

، إن النص القرآني يروي حكاية هذا المشهد الكوني الرهيب ، وهو يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن

يذكر المؤمنين به {{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ... 172 }} - الأعراف .

، ولا ريب أن سجل كل آدمي ، أو كتابه الذي سيقدم إليه يوم القيامة - سوف يكون مستهلاً بصورة من هذا المشهد .. تبين موقعه بين من حضروا هذا اللقاء ، وتثبت وجوده ، وشهادته على نفسه بالإقرار بعبوديته لله : إلهاً ، ورباً ، وحاكماً ، وستكون هذه الصورة هي المرجع الأول أو المستند الرئيسي في محاكمة كل آدمي يوم القيامة {{ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا 14 }} - الإسراء .

هكذا بدأ العهد الآدمي في ملحمة الخليقة ، وهكذا كان الذين وتكاليفه نقطة البداية في رحلة الإنسان نحو الموعد ، موعد اللقاء مع الله ، فهو يسير بين جدارين متوازيين ، جدار المسئولية الجماعية في الدنيا .. وجدار المسئولية الفردية في الآخرة .. وبهذا اختلف الإنسان عن البشر .

إن الدين يتضمن تكاليف تخص (الإنسان) باعتباره فرداً ، كما تخص (الناس) باعتبارهم مجتمعاً ، وليس هذا التفريق بين الفرد والمجتمع بوارد في استعمال كلمة (البشر) ، ففي إطار (البشرية) لا تفريق بين المستويات أو الأسماء ، إذا افترضنا أن البشر عرفوا

شيئاً اسمه (اللغة) ، وهو أمر غير بعيد ، لأنهم كانوا مجتمعاً حيوانياً ، كل فرد فيه ككل فرد ، وكل فرد بمثابة أية جماعة ، لا اعتبار للفروق الفردية .

لقد كان (البشر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة ، حيوانية السلوك ، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلاً في سلوكها ، ونضجاً في خبرتها ، وتلوناً في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها ، وربما كان هذا هو المقصود بسؤال الملائكة للرب - جلا وعلا - {{ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء }} - البقرة .. ، كان هذا هو الواقع المشاهد ، فتعجب الملائكة من استخلاف هؤلاء المفسدين المتوحشين !!

وطبيعي أن ندرك كذلك أن الزمن في هذا الحال لم يكن له معنى أيضاً ، السَّنَةُ كالسّنَة ، وألف سنة ، أو حتى مليون سنة - كيوم واحد ، لامعنى لبدايته أو نهايته ، ولا وظيفة له وقد عدم موضوعه ، ومن المعروف أن بعض الكائنات التي عاشت في الكهوف المظلمة فقدت قدرتها على الإبصار ، إذ كانت الحياة بالنسبة إليها ظلام في ظلام .

وقد عشنا في حياتنا تجربة تقرب إلينا هذا المعنى ، حيث ساقتنا الظروف التعيسة إلى محبس (زنزانة) في الإعتقال السياسي (عام 1955) .. كانت زنزانة مظلمة .. لم نكن ندري فيها مرور الأيام ، ولا حدود

الشهور ، فقد تساوى الليل والنهار ، وضاعت المعالم والآثار .

وبين أيدينا شواهد قرآنية على صواب ما نذهب إليه : ذلك أن قصة الخلق التي جاءت في سورة (ص) تعطينا الإشارة الأولى إلى الدليل على تمادي العهود التي عاشتها البشرية في ظلام الزمن السحيق ، أو في زنزانة دَيَّاك الزمن .. يقول الله تعالى : {{ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ 71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ 72 }} - سورة ص . ، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا (البشر) هو (آدم) عليه السلام ، وأن الله سبحانه وتعالى كلّف بعض ملائكته أن يجمعوا له من تراب الأرض ، من جميع أخلاطه وألوانه ، كما ذكرت الروايات الواردة في الطبري ، نقلاً عن الإسرائيليات ، ونقل عنه من جاء بعده ، وأن الله خلق هذا البشر ، وسواه ، ونفخ فيه من روحه ، فكان آدم الذي أسجدت له الملائكة .

والواقع الذي عبّرت عنه الآيتان - في نظرنا - هو أن الله سبحانه خلق (أو أراد خلق) البشر من الطين ، وأخبر ملائكته بهذا الخبر ، أو الإرادة العلوية : {{ إِنّي خَالقٌ بَشَراً }} ، وهذه هي المرحلة الأولى في بداية الخلق الإلهي . وكلمة (البشر) هنا لا تعني فرداً واحداً ، بل هي - بحسب الأصل - تطلق على أكثر من واحد ، لدلالتها على الجنس ، وقد حدد القرآن الصورة الأولى

لخلق الكائنات بأنها خلقت أزواجاً ، فقال سبحانه {{ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا 8 }} - النبأ . ، وذلك إنطلاقاً من الأرض {{ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا 17 }} - نوح . ، فمن الأرض كان انطلاق الحياة في شكل أزواج متنوعات :
وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 49 }} - }} الذاريات . {{ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... 3 }} – الرعد

البرهان القوي

وتأتي بعد ذلك مرحلتان في قوله تعالى : {{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي }} وهي آية مصدرة بأداة ظرفية زمانية هي (إذا) ، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان ، ويمكن أن يكون هذا الزمان لحظة ، كما يمكن أن يكون ضهراً طويلاً ، والقدرة التي تنجز هذا الخلق هي القدرة التي تقول للشيء (كن فيكون) ، أي : القدرة الكُنّيَّة التي لا يحكمها الزمان ولا المكان .. بل هي التي خلقت الزمان والمكان ، ونحسب أن استخدام (إذا) في هذا السياق لايبعد عن أن يراد به ملايين السنين بحساب الزمن الدنيوي ، وإن كانت هذه الملايين لا تعدو أن تكون أياماً معدودة في حساب الزمن الإلهي ، كما أنها مرت مجرد كتلة في ظلام دائم ، لم تلمع خلاله أشعة العقل ، ولا أضواء المعرفة .

وقد استخدمت (إذا) في القرآن الكريم للدلالة على المستقبل القريب والمستقبل البعيد سواءً ، فقوله تعالى : {{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ 48 }} - المرسلات . ، لا تذيد فيه مساحة (إذا) الزمنية على لحظة ينطق فيها الأمر : (أركعوا) ، ولكن قوله تعالى : {{ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ... 24 }} - يونس . ، تمتد فيه المساحة إلى زمان غير معلوم ، وكذلك في الآيات :
إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ 1 }} - التكوير . ، و {{ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ 1 }} - الانفطار . ، و {{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ 13 }} - الحاقة . .. تتراحب في هذه الآيات مساحة الظرف إلى ما شاء الله ، وهو استخدام قرآني مستقبلي .. تحسب أبعاده بالسنين المعروفة لنا ، فأما إذا عبرت عن المستقبل في داخل الماضي السحيق فتلكم هي المشكلة التي يستحيل حسابها ، ومن هذا القبيل تأتي (إذا) في قوله تعالى : {{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي }} ظرفاً زمنياً تعبيراً عن إرادة أزلية تمضي في تحققها عبر ملايين السنين ، تسوي ذلك المخلوق ، وهو جنس (البشر) ، ثم تذوده بنفخة الله الروحية ليكون عندئذ (الإنسان) الذي تسجد له الملائكة ، الإنسان الذي يدخل بوابة الزمان ، ويبدأ حضوره وحضارته .

ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة

، هي (الخلق ، والتسوية ، والنفخ) ، ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد ، فقد حدث ذلك في مرحلة (الخلق) الأولى ، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني ، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر ، وطير وحيوان ، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله ، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري ، وقد استغرقت ملايين السنين ، والله أعلم بتفاصيلها ، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية ، وهي المتمثلة في تذويد المخلوق السوي بالملكات والقدرات العليا ، التي جوهرها (العقل) ، والحياة الإجتماعية ثمرة العقل ، واللغة وسيلة الإتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء ، وبذلك اكتمل بناء (الإنسان) ، فكان (آدم) هو أول (إنسان) ، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته .

ومما يستدل به على هذه المراحل وتكاملها استعمال القرآن لأداة التراخي (ثم) في ربط أجزاء الجملة في سورة السجدة ، مثلاً في قوله تعالى : {{ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ... 9 }} - السجدة ،والأداة (ثم) للترتيب مع التراخي ، وكأن استعمالها في هذا السياق ترجمة لمفهوم الزمان المتطاول عبر عنه الظرف (إذا) ، في مقابل استخدام الفاء أو الواو

في ربط أجزاء أخرى من الآيات ، تعبيراً عن التعقيب أو مطلق الجمع (التعقيب تعبير عن تتابع الأحداث ، بعضها في إثر بعض دون فاصل طويل من الزمن ، وهو وظيفة (الفاء) العاطفة أصلاً ، ومطلق الجمع هو وظيفة (الواو) فهي لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً) .

بل إن هذا التراخي يتجلى في سورة (المؤمنون) في قوله تعالى : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ 12 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ... 14 }} - المؤمنون. ، ولنتأمل استعمال (ثم) في الآيات ، بجانب استعمال (الفاء) ، فبين (الخلق) من الطين و (الجَعْل) {{ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ }} - مسافة زمنية ، لا يعلمها إلا الله ، استغرقتها عمليات التسوية ، وهذا (الجَعْل) تعبير عن جانب من استكمال (الخلق) ، ثم تكون النطفة علقة ، ولعل تقدير ذلك تم في زمان متطاول أيضاً .

وتذكر الآية بعد ذلك عمليات تخليق الجنين ، وهي عمليات متتابعة لا يفصل بينها سوى أشهر أو أيام معدودات .. زمن قصير نسبياً .. بين العلقة والمضغة ، وبين المضغة والعظام ، وبين العظام واللحم ، وذلك كله معطوف بالفاء ، ويعود السياق بعد ذلك إلى استخدام (ثم) للتعبير عن طول الفترة الزمنية بين ما

سبق وما سوف يأتي بعد : {{ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }} ، والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق هو النقلة من البشر إلى الإنسان ، وهو خلق آخر فعلاً ، إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد .

ويمضي السياق ملتزماً نفس الإيقاع البطيء : {{ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ 15 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ 16 }} - المؤمنون . ، لقد عبرت (ثم) في الآيتين الأخيرتين عن زمن طويل ، هو في الآية الأولى (عمر الإنسان) الذي يعيشه حتى الموت ، الذي يضع نهاية للحياة المقدورة لذلك الكائن ، وهو في الآية الثانية مدة ما بيننا وبين القيامة والبعث .

ولنقرأ أخيراً آية الأعراف ، قوله تعالى : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ... 11 }} - الأعراف . ، وهي آية تعبر عن مرحلتين ، هما : (الخلق والتصوير) ، وبينهما فيما نتصور آماد هائلة ، تعبر عنها الأداة (ثم) ، ويعطف القرآن خطاب الله سبحانه للملائكة باستخدام (ثم) ، وهو في رأينا تعبير عن أن الأمر بالسجود لم يكن بعد مرحلة التصوير مباشرة ، وهو مايعني مرحلة التسوية .. بل جاءت قبله مرحلة (النفخ من روح الله) ، وقد أومأ اليها استخدامُ (ثم) في صدر الجملة {{ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ }} ، دون أن يصرح بها ، لأنه لا سجود إلا لمن زود بروح الله .

وبرغم ذلك قد يعبر النص القرآني عما شأنه التراخي - بالفاء ، فهو يضمنها معنى (ثم) ، أو بتعبير أدق : يوظفها في موقع (ثم) ، كما جاء في قوله تعالى : {{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ 6 الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ 7 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ 8 }} - الانفطار . ، وقد يسوغ هذا التضمين أن المخاطب - وهو الإنسان - لا يرى في ذاته سوى مخلوق مكتمل ، خلقاً وتسوية ، وعدلاً ، فهو يرى إندماج هذه المراحل في ذاته ، ولذلك لاق أن يضمن (الفاء) معنى (ثم) المتراخية .

وقد تفسر هذه المراحل في سورة الانفطار على أنها خاصة بأحوال الجنين في بطن أمه ، كما يقول الإمام القرطبي : { خَلَقَكَ } .. أي : قدر خَلْقَكَ من نطفة ، { فسوّاك } : في بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ، { فعدلك } .. أي : جعلك معتدلاً سوي الخلق .. وقرأ الكوفيون : عاصم وحمزة والكسائي : { فَعَدَلَكَ } .. مخَفَفَاً ، أي : أمالك وصرفك إلى أي صورة شاء ، إما حسناً وإما قبيحاً ، وإما طويلاً وإما قصيراً) .

ولسنا مع هذا التــوجيه ، مع أنه يحل مشكلة التراخي مع الفاء ، لأن الأسلوب القرآني درج على استخدام كلمات الخلق والتسوية والنفخ - خاصة بأحوال البشر

منذ وجدوا ، إلى أن صار البشر سوياً .. أي : إنساناً اصطفاه الله ، وناط به تحقيق رسالة العبودية لله رب العالمين .

ترى ، كم من الأجيال البشرية لزم لعمليتي التسوية ، والنفخ ، حتى كان آدم ذلك الإنسان الكامل الناطق ؟!

لا نبالغ إذا قلنا : إن ذلك اقتضى مئات الألوف من الأجيال ، وقد سجل كل جيل بصمته المتميزة ، على طريق الاكتمال ، ولا سيما في مجال العقل ، واللسان ، والجمال .

{{ الفصل التاسع والأخير من الباب الأول }}

برهان التكرار

الإنسان مرة أخرى

وضح لنا مما سبق أن (الإنسان) هو المقصود من التكليف الديني ، وأن (البشر) وهم طلائع الخليقة ، لا مكان لهم في عالمنا ، لأنهم بادوا ، ودرست آثارهم ، فلم تبق منهم سوى أحاديث وأحافير تدل على أنهم كانوا موجودين ، منذ عصور جيواوجية متقادمة ، فلما قضت

إرادة الله بإجاد هذا الخلق الإنساني - قدر خلق آدم ، وهو مستوى خاص جداً من (البشر) ، مزود بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة ، وملكات الإدراك والضمير ، والإرادة ، والإستعدادات الفطرية والغريزية ، للتفرقة بين الخير والشر ، وكل ذلك ثمرة من ثمرات النفخة الإلهية التي أتم الله بها خلقة ، وهيأه ليعيش في ضوء المعايير الدينية التي أرسل بها الأنبياء ، منذ آدم إلى محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وذلك قوله تعالى : {{ ص }} - آل عمران .

ومقتضى ذلك أن النوع البشري قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هي رتبة (الإنسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر ، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على أفراد هذه الرتبة : بنو آدم .

ولقد نجد في القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب ، حين نجده محتفياً بالإنسان متابعاً لوصف كل أحواله ، في ثلاثة وثلاثين موضعاً ، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد ، وهو سلوك واضح الدلالة على صدق التفرقة بين المستويين .
وللنظر الآن إلى نصوص القرآن الواردة بشأن الإنسان ، بحسب ورودها في ترتيب المصحف :

1 - {{ يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا

. 28 }} - النساء

وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ }} - 2
قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ
مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 12 }} -
. يونس

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ }} - 3
. لَيَئُوسٌ كَفُورٌ 9 }} - هود

. إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ 5 }} - يوسف }} - 4

. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ 34 }} - إبراهيم }} - 5

خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }} - 6
4 }} - النحل

. وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً 11 }} - الإسراء }} - 7

. وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا 67 }} - الإسراء }} - 8

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ }} - 9
. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا 83 }} - الإسراء

. وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا 100 }} - الإسراء }} -10

11- {{ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا 54 }} - الكهف
.

12- {{ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... 37 }} - الأنبياء .

13- {{ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ 66 }} - الحج .

14- {{ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا 29 }} - الفرقان
.

15- {{ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا 72 }} - الأحزاب .

16- {{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ 77 }} - يس .

17- {{ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. 8 }} - الزمر .

18- {{ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. 49 }} - الزمر .

19- {{ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ 49 }} - فصلت .

20- {{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ 51 }} - فصلت .

21- {{ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ 48 }} - الشورى .

22- {{ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ 15 }} - الزخرف .

23- {{ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا 19 إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا 20 وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا 21 }} - المعارج .

24- {{ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ 14 }} - القيامة .

25- {{ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى 36 }} - القيامة .

26- {{ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ 17 }} - عبس .

27- {{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ 6 }} - الانفطار .

28- {{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ 6 }} - الانشقاق .

29- {{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ 4 }} - البلد .

30- {{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ 4 ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ 5 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. 6 }} - التين .

31- {{ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى 6 أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى 7 }} - العلق .

32- {{ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ 6 وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ 7 وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ 8 }} - العاديات .

33- {{ وَالْعَصْرِ 1 إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ 3 }} - العصر .

هذه هي المواضع التي ذكر فيها (الإنسان) في القرآن الكريم بصفات مختلفة ، بين الخير والشر ، والقوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والحكمة والحمق ، والعلم والجهل ، والطهر والدنس ، والعرفان والجحود ، وأخيراً فهو مستهدف دائماً لعداوة الشيطان .. هذا كله عن الإنسان .

على حين أن القرآن كله لم يذكر البشر بشيء من هذا أو غيره ، مع أن كلمة (البشر) وردت في القرآن مفردة ثلاثين مرة ، ثم ذكرت مثناة مرة واحدة ، أما (الإنسان) فقد ورد لفظه في القرآن الكريم اثنتين وستين مرة ، بالإضافة إلى ورود لفظة (الإنس) سبع عشرة مرة ، وجاءت لفظة (أناس) سبع مرات ، ولفظة (الناس) مائتين وأربعاً وثلاثين مرة ، ولفظة (أناسي) مرة واحدة ، فمجموع ورود لفظ الإنسان وأمثاله ثلاثمائة وإحدى وعشرين مرة .

سبق القول أن مجموع ورود لفظ الإنسان وأمثاله - ثلاثمائة وإحدى وعشرين مرة ...

فإذا علمنا أن (الناس) قد خوطبوا في القرآن الكريم بلقب (بني آدم) ، وأن ذلك قد جاء سبع مرات في القرآن ، إذا علمنا ذلك كله ، تأكد لدينا أن (الإنسان) هو المرحلة الأخيرة والحاسمة في تاريخ الحياة على الأرض ، وأن وجود (البشر) إنما كان بمثابة المراحل التحضيرية لذلكم المخلوق الذي قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية ، وتحصيل خواص الجمال ، والكمال ، بروح من الله الذي قدر له أن يكون سيد الكون ، حتى صار جديراً بأن يحمل أمانة الله على هذه الأرض ، وينفرد بذلك من دون السموات والأرض والجبال جميعاً ، فكان قوله تعالى بشأنه : {{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ

. ظَلُومًا جَهُولًا 72 }} - الأحزاب

لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل ، سواء ذلك القدماء والمحدثون ، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات ، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم ، والخلق ، حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة ، وأن الدين لا يملك سوى بعض القصص الأسطوري ، وبعض التصورات الخرافية ، وأن الدين بذلك يقف أمام حائط مسدود ، يجب تجاوزه . للحاق بركب العلم والتقدم

وها نحن أولاء نجد الدين في نصوصه الحقه (القرآن) يسبق العلم سبقاً بعيداً ، ويحدد هوية الحياة على الأرض تحديداً لا يتصادم مع العقل والرؤية العلمية اللاحقة .. بل إنه يتوافق مع الحقائق العلمية ، ويدعو إلى الاعتماد عليها في فهم قضية (بدء الخليقة) ، كما سبق أن قرأنا ذلك في آية سورة العنكبوت : {{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ... 20 }} - العنكبوت . ، وبذلك يكون العلم بياناً لنصوص القرآن ، فيما توصل إليه من حقائق ، كما أنه في طريقه إلى موافقة القرآن في كل ما قرر من نظريات تحتاج . إلى مزيد من البحث والتحقيق

آدم أبـو الإنسان

هل آن الأوان لنجيب عن السؤال الذي طرحناه من قبل ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشرية شيئاً واحداً في الأرض .. أرادته القدرة الإلهية ، وتابعته في مراحله المتطاولة ، وسارت به حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ؟ .. أم كان وجود الخليقة في صورة مجموعة من الأشكال المتنوعة أو المتقاطرة على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمني الهائل ، وكان آدم أحد هذه الأشياء ؟

إننا نبادر إلى نفي الشق الثاني من السؤال نفياً قاطعاً لأسباب تفرض نفسها : أن البشرية تعني في المفهوم الديني القرآني جنساً واحداً ، لا عدة أجناس مقتبس بعضها من بعض على ما قررته النظرية الداروينية .. التي أسقطها العلماء في الشرق والغرب على السواء .

وقد تميزت هذه الخليقة بصفات ثابتة في كل المراحل .. مشتركة بين أفرادها وأجيالها .. مختلفة عما عرفت به أجناس الخلائق الأخرى من خصائص وميزات وصفات ، وهو ما يعنيه قول الله تعالى : {{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ }} - النور . ، والعلم يؤكد صدق هذه الآية بتقريره أن البشر منذ وجدوا كانوا يسيرون منتصبي القامة ، بعكس الأجناس الأخرى ، والإختلاف في هذه الخاصية يعني

تعدد أجناس الخلق ، وهو الحقيقة المقررة حتى الآن . فيما نشاهد من أصناف الخلق ، ما دَقَّ منها وما جَلَّ ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أزلاً أنه {{ خَـالِقٌ بَشَراً مِنّ طِين }} ، وأن هذا البشر سوف يتعرض للتسوية والتعديل في أطوار نضجه ، حتى يكتمل ، وحينئذ يتعين على الملائكة أن تسجد له ، فلو تعددت الأنواع الخلقية لما تقررت حكمة الخالق في أمره بالسجود لهذا المخلوق بالذات ، دون غيره من أجناس الخلق الأخرى ، فهو متعين منذ كان طيناً ، لم يخف أمره على ملائكة الرحمن ، وهي تتابع ما يطرأ عليه من تغير وتنام عبر الدهور ، حتى أصبح بشراً سوياً .. أي : إنسانا متكاملاً ، هو آدم عليه السلام فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 73 إِلَّا إِبْلِيسَ ... }} ص - {{ 74 .

إن منطوق القرآن ومفهومه يؤكدان وحدة الخلق البشري الذي بدأ بأول بشر خلق من طين : {{ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ 8 ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ... 9 }} - السجدة . ، ولا مانع في نظرنا من أن نتصور البشر الأول بلا وظيفة سمع ولا بصر ، ولا فؤاد ، ثم كان ذلك في مراحل مختلفة على طريق استكمال مقومات هذا الخلق البشري : {{ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ }} ، (يجب أن نلاحظ الفرق بين الخلق وهو الإيجاد من عدم ، والجعل وهو تمكين الحاسة من أداء وظيفتها) . ، وقد

سبقت الإشارة إلى مغزى هذه المرحلة ، واللغة من أخطر مقومات هذا الخلق ، ويبدو أنها بلغت درجة من الكمال في المرحلة الآدمية الحاسمة ، حتى تفوق آدم على الملائكة في أول إختبار .

لقد كانت ملحمة هائلة !! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها (إنساناً) تتألق فيه كمالات النبوة ، فاختاره الله واصطفاه كما قال : {{ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ ... 33 }} - آل عمران . ، فصار آدم نبياً ، كما قال سبحانه : {{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى 122 }} - طه .

لقد استغرقت هذه الملحمة - كما سبق أن قلنا ملايين السنين ، ولكنها مرت ظلاماً في ظلام ، أو : غيباً في غيب ، حتى أذن الله للصبح أن ينبلج - فأشرق الإنسان من سلالة البشر ، واكتمل الخلق ، وجاء آدم !!

وليس غريباً أن نتصور - بناء على هذا - أن آدم جاء مولوداً لأبوين (ذكر الشيخ رشيد رضا أن وثنيي الهند يزعمون أن لآدم أماً ، ولها في مدينتهم المقدسة - بنارس - قبر عليه قبة بجانب قبة قبره - المنار 8 / 308) . ، وأن حواء جاءت كذلك ، على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ، ورفض عنيف !! وبلا تفكير !!

إن هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ، ذلك أن الخلق الذي بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطيني - كان هدفه النهائي والوحيد خلق (آدم) ، وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين - إن كان ثمة تاريخ - إنما هو وقائع بناء جسد آدم ، وعقله ، وروحه ، وملكاته ، وخصائصه ، وقد تم ذلك كله في غيبوبة الزمان ، حيث استوى الصفر والمليون ، فما هي إلا سِنَةٌ استمرت بضعة ملايين من السنين حتى استوى الإنسان .. (آدم) الذي نبت من التراب ، وانبثق من الأرض ، لقد تبددت الأحداث والوقائع ، ولم يبق منها سوى الحقيقة الترابية .

وهو تصور ليس غريباً ، ولا بعيداً عن الواقع الذي قرره القرآن - مثلاً - عن الآخرة حين قال تعالى : {{ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا 46 }} - النازعات . .. أي : إن الزمان يكون قد انطوى ، وسقطت في جُبِّه كل الأحداث مهما تعاظمت ، واستغرقت مئات السنين ، وهو كذلك ما قرره القرآن في قوله تعالى : {{ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ 113 قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ 114 }} - المؤمنون .

وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها في وجود كل مخلوق يدخل في مضمون الضمائر (أنا - ونحن - وأنت - وأنتِ - وأنتما - وأنتم - وأنتن - وهو -

وهي - وهما - وهم - وهن) ، وخبرها جميعاً (من تراب) : {{ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}}

== البـــاب الثاني ==

وقائــع القصــة

{{ الفصـــل الأول }}

البشــر واللغــــة

كانت اللغة هي معجزة الخلقالتي أثمرها تزويد المخلوق البشري بالملكات العليا ، وفي قمتها : العقل .. وإذا كان البشر قد عاشوا ملايين السنين حتى تتم عملية التسوية ، والنفخ الإلهي - فإن من أخطر مظاهر الكمال الخِلْقَي أن يدرك الأفراد معنى العلاقات المتبادلة فيما بينهم ، وهي علاقات لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال اللغة ، ونحن نستخدم (اللغة) هنا بالمفهوم العام الذي يشمل الجاذبية الجنسية ، وهي أقدم لغة وصلت مابين طرفي النوع البشري من أول لحظة ، كما يشمل التدافع والاحتكاك المادي ، والإشارة والصوت المبهم .. إلخ ، وعلى

طريق النضج البشري بدأت الجوارح تصل ما بين الفرد والفرد ، وما بين الذكر والأنثى ، ونحسب أن صوت الجنس كان أقدم الأصوات التي صدرت عن البشر أو صرخوا بها .

وكما بدأت وظائف الجوارح تتحدد في سلوكيات مادية ، قابلة للترقي والتطوع والتنويع ، وما أشبه البشر آنذاك - والزمان طفل لم يتجاوز بضعة ملايين من السنين - بأطفالنا الآن في أيامهم الأولى ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة : {{ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78 }} - النحل .

ومن المسلم به علمياً أن وجود البشر كان مسبوقاً بوجود الكائنات الأخرى من الطير والحيوان في البر والبحر ، وكانت هذه تشكل عالماً من الكائنات بأشكالها وأنواعها ، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشري ، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم .. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات ، ودور الغراب في قصة أبني آدم ذو دلالة ظاهرة في هذا المجال : {{ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ ... 31 }} - المائدة . ، أي : إن الإنسان في مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه ، حتى شاهد - وهو في قمة مأساته - الغراب يلقنه درس الدفن ، بعدما بلغ

سن الرشد ، ودخل في المرحلة الآدمية الجديدة ، ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا في بداية وجودهم ، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أي : يأكل بعضهم بعضاً .

ولو أننا تصورنا حياة الصدام ، والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق - فإن ذلك يعني أن العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هي القوت اليومي ، بوجهيها : السلبي والإيجابي .

وقد كانت هذه العلاقات تتنامى دائماً ، كماً وكيفاً ، ، وهي تحدث بصماتها ، وتحفر في العقل البشري آثارها ، وكان البشر قد ميزوا بالفؤاد ، أي : بالعقل ، وهو ما يعني أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بالتجربة في ذاكرتهم ، ثم صاروا يفيدون من رصيد التجارب المتراكمة ، في الحركة ، وفي الصوت .

لقد كانت للطير أو للحيوان طريقته التي لا تتغير في التعامل مع جنسه ، وغير جنسه ، ولكنه يأتيمن ذلك ما يوصف بالتلقائية الأبدية ، والثبات الغريزي المتواصل عبر ملايين السنين ، وإن حدث تغير أحياناً في الشكل ، أما رصيد التجارب البشرية فقد كان في نمو دائم ، وتغير مستمر ، رغبة في تحسين الأداء ، وتمكين الجنس البشري من السيطرة على سائر الأجناس ، ومن هنا كان التوجه إلى استخدام الأدوات الحجرية

لمضاعفة القدرة ، وتأمين السيطرة .. هذا من جانب الحركة .

فأما من جانب الصوت فقد كان أغزر مادةً ، وأكثر حدوثاً ، إذ كانت الضوضاء - وما زالت - هي غذاء الحياة وقوتها ، ودليلها ، سواء صدرت الضوضاء عن البشر ، أم صدرت عن المادة المتعلقة بالحركة ، وليس بوسع مخلوق أن يأتي بحركة إلا مقترنة بصوت ، ينبعث من أثر إحتكاك المادة بعضها ببعض ، أو يصدر عن الإنسان ، وهو يتعامل معها ، ثم يتحول الصوت إلى مقطع ، ثم إلى كلمة ، ثم إلى درجات من التركيب المتنوع ، ثم تتطور هذه الحالة التي اقترن فيها الصوت بالحركة ، ليصدر الصوت مستقلاً عن الحركة ، وقد يكون في هذا الحال مجرد صوت ، وقد يرتبط بهدف حيوي ، أو تعبير عاطفي ، وهكذا نشأت اللغة البشرية ، مع التجاوز البالغ عن تفاصيل كثيرة .. كثيرة جداً تتعلق بأوعية الزمان والمكان ، واحتمالات الفعل والترك ، والإيجاب والسلب ، والعطاء والمنع ، والذكاء والغباء ، والتناقض والاستواء .. إلخ .

ولا شك أن البشر كانوا محوطين بأصوات أخرى تصدر عن الطيور والحيوانات ، ولهم من دون الخلائق جميعاً قدرة على تقليد الأصوات ، ونادر من الطيور ما عرف بتقليد الأصوات (الببغاء) ، أما الإنسان فقد لذ له دائماً التخاطب مع تلك الكائنات ، أو التجارب معها

من باب التسلية أو الترويض ، وقد لاحظ أولئك البشر أن لكل كائن نوعاً من الضوضاء يستخدمه في قيادة القطيع ، أو نداء الأنثى ، أو تحذير الصغار ، أو مواجهة الأخطار ، فلم لا يكونوا كذلك ، وهم يملكون قدرة هائلة على التنويع ، وهم - كذلك - يعقلون المعنى الوظيفي للصوت حين ينطلق بوجه من الوجوه ، ولم لا يكون تعاملهم مع هذه الكائنات من قناة اللغة ، بحيث يضعون لها أسماء تميزها عند التعامل معها .

هكذا تخلقت اللغة خلال ملايين السنين ، حتى صارت مكونة من أصوات متشخصة ، وكلمات متخصصة ، وحتى أصبحت تضم الألوف من الكلمات .. بل حتى تنوعت فبلغت عدة اللغات أكثر من ألفي لغة ينطقها الإنسان الآن ، وكلها مبنية على عدد محدد من الأصوات هو غاية ما يصدره جهاز النطق ، لا يزيد ولا يتنوع .

لقد أولع كثيرون بالبحث عن أصل اللغة ، فمن قائل : إنها من وحي الله .. نزّله على بعض عباده من الأنبياء ، كآدم ، وإسماعيل !! وللجاحظ هنا مقولة : إن الله فتق لهاة إسماعيل بالعربية على غير مثال سبق (مختارات فصول الجاحظ / مخطوط بدار الكتب) .
وقائل : إنها مواضعة حددت لكل شيء اسمه المتفق عليه - وهو قول ابن جنى في (الخصائص 1 / 44) .

!! وقائل : إنها محاكاة لأصوات الطبيعة
!! وقائل : إنها نتيجة إنفعالات تعرض لها الإنسان

وتصور أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس - رحمة الله عليه - (أن الكلمات الإنسانية الناشئة كانت كثيرة المبنى ، قليلة المعنى ، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون ، ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق ، دون هدف معين سوى المتعة واللعب بألسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أي : إن اللغة نشأت في صورة لعب ممتع ، لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع .. بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة .. فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعواطف ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلفت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغني غناءً متواصلاً ، . لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفة من الطيور

كذلك كان الإنسان الأول يغني في أثناء صيده ، وفي حربه ، وفي كل ما يقوم به .. غناءً لا كغنائنا - يهدف إلى الطرب - وإنما هو تصويت منسجم تتردد فيه . الأصوات والمقاطع

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة ، وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل في التعبير عن كل ما يدور

بخلد الإنسان من خير أو شر (دلالة الألفاظ صفحة 23 وما بعدها) .

والواقع أن كل افتراض لتفسير نشأة اللغة له نصيب ، ولو ضئيل ، من الصواب ، فكل الآراء تجتمع لتنسج ثوب اللغة في صورة مكتملة ، غير أنها جميعاً وقعت في خطأ مشترك هو خلطها بين البشر والإنسان من ناحية ، وتصورها أن اهتداء الإنسان للغة كان خلال الفترة الزمنية القريبة التي عاشها الإنسان منذ آدم عليه السلام باعتباره أول المخلوقات .. من ناحية أخرى .

والحق الذي نؤمن به هو أن اللغة ظاهرة بشرية معقدة شديدة التعقيد ، ظهرت في حياة البشر على مدى الملايين من السنين التي عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام ، وقد بلغت درجة من الكمال باعتبارها أداة تعامل على مشارف العهد الإنساني الآدمي ، حتى تحملت ما دار من حوار بين الله وملائكته ، وبين الله وإبليس ، وبين الله وآدم وحواء ، بكل ما حوته هذه الحوارات من معان دقيقة وراقية .. أقرب شيء إلى التجريد ، والتجريد مستوى من الرقي اللغوي لا تعرفه سوى اللغات الحضارية الناضجة التي تجاوزت المحسوس من المجرد .

بل إننا حين نقرأ قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد في المعنى ، وثراء اللفظ ، حتى إن

الإنسانية مازالت دون بلوغ الأفق الأخلاقي والقيمي الذي عبرت عنه تلك القصة ، مما يدل على درجة من الحضارة الدينية ، بلغها الإنسان في ذلك الزمان ، بعد أن كافح ملايين السنين في مرحلة البشرية .

ولنقرأ نص القصة . يقول الله تعالى : {{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ 27 لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ 28 إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ 29 فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ 30 فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ 31 }} - المائدة .

لقد ذكرت القصة : القربان ، وهو معنى ديني خاص ، وذكرت قبول القربان أو عدم قبوله ، ودلالة ذلك على التقوى ، والتهديد بالقتل والتسامح في مواجهة التهديد ، خوفاً من الله ، رب العالمين ، وذكرت : مفهوم الإثم ، ومضاعفته ، وعاقبة الظلم ، وهي النار ، وسيطرة النفس الأمارة بالشر على القاتل حتى قتل أخاه ، وصار بذلك خاسراً دنياه وأخراه ، وأخيراً ذكرت الدرس الذي تلقاه القاتل من الغراب ، فتحول فعل الطير إلى معنى

. كبير من لوم النفس ، والندم العميق

وكل هذه المعاني الدينية ذات دلالة على الرقي النسبي الذي بلغه الإنسان ، لعهد آدم .. لقد اجتازت اللغة مرحلة التعبير المادي فأصبحت معبرة عن المعاني الغيبية .. أي : إنها عبرت مستوى الحقيقة إلى المجاز ، وهو تقدم خطير ، لم تبلغه البشرية إلا عبر ملايين السنين ، وقد توجت هذه المرحلة باصطفاء آدم ، نبياً يحمل رسالة الله إلى بنيه ، وهم الجيل الأول من أجيال . الإنسانية

ومن المعاني الغيبية المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا - ما جرى على لسان إبليس وهو يغري آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة - قال : {{ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20 }} - الأعراف . !! فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود ؟ وكيف لهما أن يتخيلاه ، وهو معنى مرتبط بواقع لم يحدث من قبل ، على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية ؟؟ ونعني به واقع (الموت) وهو ضد الخلود ؟

إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت ، وابتلعها الفناء ، ولعل الخلود أو البقاء كان حلماً يراودهما ، فجاءهما الشيطان من هذا الباب وقد عرف حلمهما ، أو نقطة ضعفهما ، فقاسمهما : {{ إِنِّي لَكُمَا

لَمِنَ النَّاصِحِينَ 21 فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ... 22 }} - الأعراف .

إننا لا نشك في أن آدم قد صنع على عين الله ، وأنه ظفر برعاية ربانية استثنائية جعلته في ذاته معجزة إلهية ، وكان آدم بذلك مدداً للمرحلة القادمة التي بدأت به مع زوجه حواء ، ومن خلال آدم بدأت الإنسانية مسيرتها بخطوات قاصدة راشدة ، على حين بادت الموجودات البشرية الطليقة الشاردة لتبدأ المرحلة الجديدة .. مرحلة التكليف الديني .. بعبادة الإله الخالق الواحد ، بعد أن تم للإنسان التعرف على الكون من حوله ، من خلال الأسماء التي تحدد وجود كل شيء والتي أعانه الله سبحانه على استيعابها .

ونعود إلى حديث اللغة فنقول :
لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعة هائلة من الصدف العشوائية ، يجل حصرها ، وكان المخلوق البشري أشبه بطفل جلس إلى جهاز كمتور (الكمتور : نحت عربي - للمؤلف - من كلمة كمبيوتر) ضخم ذي مفاتيح كثيرة ، فأخذ الطفل في البداية يلمس هذه المفاتيح ، ويرقب أثر لمساته ، وكلما وجد أثراً على شاشة الجهاز كرر اللمس ليستمتع به أو بغيره ، حتى تكونت بينه وبين الجهاز أُلفَة أغرته بالمذيد ، فمضى يستخدم خبراته المثبتة نتيجة التكرار ، ويبني تجارب أخرى مركبة من تجاربه البسيطة ، إلى أن سيطر على الجهاز

مع تقدمه في العمر ، وصار به خبيراً .. فكذلك الإنسان الذي ورث التراث البشري ، وتألقت في شخصه كل المواهب البشرية ، وزاده الله مدداً وتعليماً ، فكان آدم عليه السلام العلامة الأولى لبدء عهد جديد ، هو عهد الإنسان المتدين : آدم وبنيه .

وبقى سؤال لم يطرحه أحد ممن تناولوا هذه القصة في القديم والحديث ، وهو : من أين جاءت تسمية آدم ؟

والاسم رمز المسمى ؛ فهل يمكن أن يطلق على آدم هذا الاسم دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً في الرقي اللغوي قبل مرحلة الإنسانية الآدمية ؟ وإذا قرأنا قوله تعالى : {{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ... 31 }} - البقرة . - فهل لا يوحى منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية ، أو أسماء لمعان مجردة ، وأن حصيلة ذلك كانت في عقل آدم ؟ أو استطاع آدم أن يحصلها !!

قد يقول قائل : إن اسم (آدم) هو اختيار الله ، أطلقه على أول خليقة في الأرض !!

ولكن التناسب الذي نجده بين الاسم والمسمى .. أي : بين معنى كلمة (آدم) والمادة التي ينتمي إليها وهي (أديم الأرض) - هذا التناسب لا يمكن أن يتصور حدوثه على سبيل الصدفة أو الفجاءة ، فالفجاءة خروج على

سنة الله في الخلق والتسوية والإبداع ، وهو آيات العظمة الإلهية ودلائلها . فلم يبق إلا أن نفترض مستوى من النضج اللغوي بلغته البشرية في أواخر مرحلتها ، وفي بواكير العهد الإنساني ، وهو ما يعني أن العربية قديمة .. قدم التاريخ الإنساني على هذه الأرض .. على الأقل .

لقد زعم العبرانيون أن لغتهم هي أقدم اللغات وأصلها وهو ما لم يسلِّم به أحد من علماء اللغات لانعدام الدليل على صحة مقولتهم ، أما نحن فنرى - انطلاقاً من ملاحظاتنا السابقة - أن العربية هي الأصل والأقدم ، ولذا كان اختيار الله لها في كل ما دار من حوار جرت به أحداث هذه القصة .

{{ الفصل الثاني من الباب الثاني }}

الإنســــان والملائــــكة

الملائكة عالم من عوالم الكون التي برأها الله ، خلقهم من مادة النور ، بهذا جاء الحديث الشريف برواية أحمد ومسلم رضي الله عنهما : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق الإنسان مما وصف لكم) ، وليس بلازم أن نبحث في ماهية هذا النور ، وهل هو النور الذي نألفه من مصدر كالقمر ، أو الضوء الذي

عهدناه من مصدر الشمس ، أو هو نور آخر مختلف العناصر والأطياف لا ندري كنهه ؟ ويكفي أن نذكر قياساً يَقِــفُنا عند حدود أقدارنا ، فقد خلقنا الله من تراب ، وشتان ما بين هذا التراب واللحم الآدمي في الشكل ، وإن اتحدت عناصرهما عند التحليل ، فالمسافة هائلة لا يمكن للعقل أن يقطعها ، وكذلك الملائكة .. هم من النور ، ومع ذلك نتصور أن هيئتهم التي خلقوا عليها بعيدة جداً عن مادة النور التي نألفها ، وكل مانملكه هو أن نؤمن بهم كما أخبر الله عنهم ، وكما طلب منا الإيمان بهم ، فهم ملائكة الله وجنده ، وهم جزء من عالم الغيب الذي حجبت عنا حقيقته ، واستحالت علينا رؤيته ، ولعلنا نتذكر هنا أن البشر قد كانوا في أقدار الخلق هم العالم الظاهر ، في مقابل العالمين المخلوقين الخفيين ، عالم الملائكة وعالم الجن ، وما شاء الله من خلق لا نعلمه .

ونحن من خلال الدين ندرك الدور الذي تؤديه الملائكة في عالمنا الإنساني ، فمنهم ملهمون بالخير ، ومنهم حفظة .. سفرة .. كرام كاتبون ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم ملائكة السماء والسحاب والمطر والأرزاق والأقدار ، ومنهم الموكلون بحياة العباد وموتهم .. إلى ما لا يحصى من مهام خصهم الله بالقيام عليها في إدارة الكون ، في السموات والأرض : {{ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ 19 يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ

. 20}} - الأنبياء
علاقة الإنســـان بالملائـــكة

بدأت علاقة الإنسان بالملائكة على مشارف المرحلة البشرية ، وذلك حين أعلم الله الملائكة أنه خلق أو أنه يريد خلق (بشر من طين) ، وإعداداً لهم في مواجهة ما سوف يحدث من متغيرات على ساحة الأرض ، وقد إختارها الله لإيجاد هذه الخليقة البشرية ، بعد أن جعلها مهداً ، وكان البلاغ الإلهي منطوياً على جملة من العناصر المستقبلية إضافة إلى ما كان منجزاً منه .. كان (خلق البشر) قد أنجز ، أو هو بسبيله إلى الإنجاز ، وهو دلالة الجملة الأولى : {{ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا }} ، ثم جاءت الأمور المستقبلية في شكل هذا الأسلوب الشرطي : {{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }} ، وكأن الله يريد من الملائكة أن تراقب ما يحدث من تغييرات في أحوال هذا المخلوق الظاهر وصفاته ومقوماته ، حتى يسجدوا له كما أمرهم ، إذعاناً لأمره ، وإعظاماً لروعة إبداعه ، ومضت ملايين السنين ، وطحنت عشرات الألوف من الأجيال ، وربما مئاتها في عملية التسوية والتزويد بالملكات العليا والملائكة تراقب أحوال ذلكم المخلوق وتحركاته ، حتى آن أوان السجود .

كان المدخل إلى معرفتهم بأن السجود قد آن أوانه خطاب الله سبحانه لهم بقوله : {{ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ

خَلِيفَةً ... 30 }} - البقرة . ، وهو خطاب يتضمن إخبارهم بأن التسوية قد تمت ، وقد صار البشر مزوداً بالنفخة من روح الله ، وكان لهذا القول وقع المفاجئة على أسماعهم ، فهم يتابعون منذ ملايين السنين أحوال هذا المخلوق (البشر) ، ويعاينون من شئونه ما يحيرهم ، ولذلك بادروا إلى سؤال المولى عز وجل : {{ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... 30 }} - البقرة . ، وكأنهم يقولون لربهم : أهذا هو المخلوق الذي أمرتنا بالسجود له ، حين أخبرتنا بخبره منذ ملايين السنين ؟ لقد راقبنا أحواله منذ ذلك العهد السحيق ، فما رأينا منه غير الإفساد في الأرض ، وسفك الدماء ، وهم يشيرون بذلك إلى السلوكيات الحيوانية التي كان عليها البشر في مختلف مراحل تسويتهم ، حتى إكتمال ملكاتهم بالنفخة الإلهية وثمراتها .

ويحلوا لبعض المفسرين - أو لجمهورهم - أن يفترضوا أن الملائكة كانوا يرون أنهم جديرون بهذه الخلافة دون البشر ، وهو افتراض لا يقبله العقل ، فقد كانوا يتمتعون بميزات الشهود والقرب من الله سبحانه وتعالى ، وهي مرتبة عليا في سلم المخلوقات - لم يبلغها غيرهم من الكائنات الأخرى !! إن الكون كله صفحة مبسوطة بين أيديهم وأنوارهم ، يرتادون آفاقه ، ويجوبون أنحاءه ، ويعلمون من أمره ما أذن الله لهم بعلمه ، وأين هذا البهاء والسناء من أحوال ذلك المخلوق الحيواني ،

اللازق بالأرض ، النابت من التراب ، المعربد في ممالك الطير والحيوان ، السافك لدماء جنسه وغير جنسه ؟!

فما الذي تتمناه الملائكة أكثر مما هي فيه من اتصال بالملأ الأعلى ؟ .. إن معنى سؤال الملائكة لا يتضمن رغبتهم في تلك الخلافة ، أو حسد البشر عليها .. بل هو تعبير عن إستغرابهم لما يتوقعونه من استمرار الفساد ، وتذايد التشويش في الأرض على تسبيحهم وتحميدهم وتقديسهم لجلال الله وعظمته ، فموقع الجملة الملائكية : {{ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }} - موقع الحال ، أي : إننا غارقون في أنوار التقديس ، في حين أن هؤلاء والغون في بحار الدماء ، لا يعرفون ديناً ، ولا يعبدون إلهاً .
وقال الله : {{ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }} ، وسكتت الملائكة .

ونبادر هنا على إلى تسجيل ملاحظة على عبارة الملائكة : {{ وَيَسْفِكُ الدِّمَاء }} ، فهي إشارة إلى إنتشار جرائم القتل في تلك العهود بين البشر ، ولم يكن قتل قابيل لهابيل إلا استئنافاً لسفك الدماء في العهد الإنساني ، عهد التكليف بعبادة الله وحده ، بعد انقراض بقية البشر ، وانتهاء العهد البشري الذي لم يعرف تكليفاً ولا تلقى رسالة ولا اتبع ديناً .

فهذه الجريمة كانت أولى الجرائم في العهد الإنساني ، وتميزت بالإهتداء إلى دفن الموتى من بني آدم لأول مرة ، بعد أن كانت الجثث تترك في العراء كسائر الحيوانات النافقة ، تأكلها الضراوي ، أو تتآكل .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخاري والنسائي عن مسروق عن عبد الله : (لا تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، وذلك أنه أول من سن القتل) - يشير أيضاً إلى موقع ذلك الجرم من المسئولية ، فقبل ارتكاب هذه الجريمة لم تكن هناك مسئولية عن قتل النفس ، لأنه لا مسئولية إلا بعد إرسال الرسل ، وقبل آدم لم يكن رسول ولا دين ، فلا مسئولية ، وبعد آدم بدأ العهد الإنساني فكانت المسئولية الدينية ، فتحمل ابن آدم الأول وزر قتل أخيه ، وعليه كفل من دم كل نفس تقتل ظلماً ، لأنه أول من سن القتل ، أي : هو أول من خرج على الدين ، واتخذ لنفسه سنة أخرى ، هي سنة الظلم والقتل ، لا سنة الدين والعدل ، وفي الحديث : (من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

لقد قال الله سبحانه لملائكته : {{ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }} ومضمون هذا الخبر أمر لهم بالسكوت ، ودارت الأقدار على نهج المشيئة ، وبدأ الدرس الأول ، أو الرسالة الأولى في تاريخ الإنسانية : {{ وَعَلَّمَ آدَمَ

الأَسْمَاء كُلَّهَا }} .. وحتى هذه اللحظة لم تكن الملائكة تعلم : مَنْ ذلك الذي جعله الله من بين البشر خليفة في الأرض ؟!! ولم يكن آدم قد ظهر على المسرح ، فاصطفاؤه كان في علم الله وحده .. وهم معذورون لأنهم لا يرون في تلك الخليقة إلا الجانب السلبي ، أما الجانب الإيجابي فمحجوب عنهم ، ولم يكشف الله لهم شيئاً من أسراره .

وجاء وحي الله بالرسالة والاصطفاء إلى آدم ، {{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا }} وهذه أول مرة يذكر فيها لفظ (آدم) ، وتعليم الله له هو فحوى رسالته التي لم تذكر إلا في هذه الآية ، وهي آية لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء قوله تعالى : {{ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ 33 }} - آل عمران .

إن آدم رسول مصطفى من الله ، تماماً كنوح وإبراهيم ، ولقد كانت لنوح ملحمة كبيرة تحدث عنها القرآن في أكثر من موضع ، وكانت لآدم - قبل نوح - ملحمته الكبرى التي بدأت بهذه اللمحة الإلهية ، فقد علمه ما لا تعلم الملائكة .. علمه الدين ، والرسالة التي سوف يبلغها لبنيه ، وهو ما بدا متألقاً في الحوار الذي دار بين أبنيه متضمناً كل المفاهيم التوحيدية ، وأمهات الأخلاق الدينية ، وتلكم هي الأسماء التي تعلمها آدم عن ربه .
ولأمر ما حَــرَصَ القرآن على أن يؤكد أنه تعلم {{ الأَسْمَاء كُلَّهَا }} ، فلعل آدم كان يعرف بعض الأسماء

فتولى الله سبحانه تعليمه كل الأسماء ، فيما يتصل بالمهمة التي سينهض بها ، خليفة في الأرض ، ومن بين الأسماء التي تعلمها أسماء الملائكة المشاركين في هذا الحوار ، وقد تضمن القرآن بعض هذه الأسماء فتعلمها المؤمنون من الوحي .

وكان اصطفاء آدم للرسالة الإنسانية الأولى غيباً محجوباً عن الملائكة ، لا يعلمه إلا رب العزة ، وكانت الأسماء التي تعلمها متعلقة بالأمانة التي ناطها الله بآدم وذريته ، وهو ما لم تعلمه الملائكة من قبل .. إنها بداية عهد جديد ، وإشراقة جيل الإنسان على أنقاض الركام البشري ، وحين عرض الله سبحانه هذه المضامين على الملائكة : {{ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ 31 قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ 32 }} - البقرة .
ولا مانع من أن يشار إلى المعروضات الماثلة في الموقف بإشارة العقلاء (هؤلاء) ، لأن الأسماء تتعلق باشخاص وأشياء تفرد آدم بعلمها ، وأقرت الملائكة بأنها لا تعلم إلا ما سمحت به من قبل مشيئة الله ، {{ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ 33 }} - البقرة .

ووضح من الموقف تفوق آدم ، واختصاصه بالرسالة والاصطفاء ، وهنا حانت لحظة السجود لآدم ، تنفيذاً

. للأمر الصادر منذ بضعة ملايين من السنين

فسجود الملائكة كان في تقديرنا سجوداً لآدم النبي المصطفى .

{{ الفصل الثالث من الباب الثاني }}

السجـــود للنبـــي الإنســـــان

ورد موضـــوع السجود لآدم في ســبع صور من القــرآن ، وهي بترتيب النزول :

1 - السورة السابعة والثلاثون (ص) : {{ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 73 إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ 74 }} - ص .

2 - السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) : {{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ 11 }} - الأعراف .

3 - السورة الرابعة والأربعون (طه) : {{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى 116 }} - طه .

4 - السورة التاسعة والأربعون (الإسراء) : {{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا 61 }} - الإسراء .

5 - السورة الثالثة والخمسون (الحجر) : {{ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 30 إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ 31 }} - الحجر .

6 - السورة الثامنة والستون (الكهف) : {{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... 50 }} - الكهف .

7 - السورة السابعة والثمانون (البقرة) : {{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ 34 }} - البقرة .

ويلاحظ على ماسبق من النصوص القرآنية ما يأتي :

1 - أن النصوص الستة الأولى مكية ، والنص السابع مدني .

2 - أن النص في سورة (ص) يجعل السجود عقب تمام النفخ من روح الله ، وكأنه جزاء وجواب للشرط {{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ }} ، وكذلك أيضاً السياق في نص سورة (

الحجر) ، أما النص في سورة (الاعراف) فيوحي بوجود مسافة زمنية بين مرحلة التصوير (أو التسوية) وبين الأمر بالسجود ، كما سبقت ملاحظته ، ولكن استجابة الملائكة للأمر كانت في سياقها فورية مقرونة بالفاء .

وتتشابه النصوص في بقية السور المكية في (طه والإسراء والحجر والكهف) - إذ يأتي السجود جواباً للأمر : (اسجدوا) (فسجدوا) .
أما النص المدني في سورة البقرة فيجعل الأمر بالسجود عقب فصل هام من القصة ، هو الحوار بين رب العزة والملائكة في شأن (الخلافة في الأرض) ، وهي إضافة بارزة لم ترد في أي نص قرآني سابق أو لاحق .

لقد كان أهل التفسير يرون دائماً أن السجود الملائكي قد حدث عقب نفخة الله سبحانه وتعالى ، التي أنهضت آدم (بشراً مُســوَيَّ) ، وهو رأي سائد في كل التفاسير ، إذ إن الملائكة رأت في تحرك هذا المخلوق الطيني آية إلهية تستوجب السجود - تكريماً لآدم ، وطاعة لله عز وجل ، بحسب الرؤية القديمة ، وهو ما يقوله الأستاذ البهي الخولي (ص 59) : سجدوا - الملائكة - له بأمر من الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه) .

أما نحن فنرى طبقاً لتصورنا أن نص سورة البقرة ، وهو النص الأخير الذي يحكم جميع النصوص السابقة ، ويهيمن عليها - هذا النص ، قد طرح ترتيباً آخر للأحداث ، فجاء بالأمر بالسجود بعد مشهد الحوار بين الله وملائكته عن اتخاذ خليفة في الأرض ، ولم يكن آدم معلوماً آنذاك للملائكة ، رغم أنه كان موجوداً على الساحة بين أغمار البشر ، وأنهم يفسدون ويسفكون الدماء ، ولو كانت الملائكة تعرف أن المقصود آدم ، فربما استثنته من هذا التعميم ، ولذلك قال الله تعالى : {{ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }} .

وهنا دخل آدم إلى مسرح الحوار {{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ ... 31 }} - البقرة . ، كان التعليم هو الوحي الذي علم آدم ما لم يكن يعلمه ، وهو اصطفاؤه نبياً ، وتزويده بالضرورة من التعاليم الدينية ، ليبدأ الموكب الجديد ، موكب الإنسان المكرم في شخص آدم : {{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... 70 }} - الإسراء . ، وموقف آدم عليه السلام في هذا هو موقف محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله له : {{ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ... 113 }} - النساء .

وفي هذا الموقف عَلِمَت الملائكة لأول مرة أن المقصود بالخليفة هو (آدم) ، وليس غير .. إنها النبوة ، طليعة الموكب الإنساني ، وقاعدة إنطلاق الخلق الذي بدأت خطواته التنفيذية منذ ملايين السنين ، فوجد كماله

في شخص آدم ، النبي المصطفى .. يا لها من قدرة هائلة ؛ تابعت عملية الخلق خلال هذا الزمن المتطاول !! ويا له من إنجاز رائع تجلى أعظم تجلٍ في شخص آدم الرسول ، الذي تفوق على ملائكة الرحمن !!

في هذا المشهد الكوني العظيم أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، تكريماً وتكليفاً : {{ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }} - إنه موقف يثير من الأعماق كوامن الطاعة والإعجاب ، كما يحرك دوافع الحقد ودفائنه ، وفي هذا المشهد ولد الشيطان !! الكافر المتآبى المستكبر !! ..

ولا بد أن نتعرض هنا لمعنى السجود والمراد به في هذا الموقف ، وننقل من الأستاذ البهي الخولي ما قاله في كتابه (آدم عليه السلام ص 59) : (ومن البديهي أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإن ذلك لا يكون لغير الله ، إنما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة ، وليس ضرورياً أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض ، كما نفعل في سجودنا لله عز وجل ، فللسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق ، والله سبحانه يقول في ذلك : {{ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ 6 }} - الرحمن . ، ويقول على لسان يوسف لأبيه : {{ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ 4 }} - يوسف . ، ويقول : {{ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ

يَسْتَكْبِرُونَ 49 }} - النحل . ، ومن البديهي أن سجود الدواب ليس كسجود الملائكة ، وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشمس والقمر ، وسجود هؤلاء جميعاً ليس كسجود الشجر والزرع الصغير .. وهكذا .. ذلك إلى أن من معاني السجود في اللغة التطامن والتواضع ، ويقول صاحب المصباح المنير : (وسجد البعير : خفض رأسه عند ركوبه ، وكل شيء ذل فقد سجد) ، فإذا كان في سجود الملائكة معنى الذل فليس هو ذل العبودية ، ولا الذل المضيع للكرامة ، إنما هو ذل التطامن والمودة الذي ترى شيئاً منه في قوله تعالى : {{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ... 24 }} - الإسراء . ، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذي عبر عنه الحق تبارك وتعالى بقوله : {{ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... 54 }} - المائدة .

فهو سجود فيه معنى التحية والمودة وخفض الجناح ، والإقرار بالفضل ، قال القرطبي في الجامع : (وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم ، الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه مبقي على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد .. أي : خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل) - القرطبي 1 / 293 .
والواقع أن الموقف لم يكن بحاجة إلى هذا العناء لتفسير السجود بالتذلل أو خفض الجناح ، أو الإقرار بالفضل ، فذلك كله مبني على التصور القديم الذي يرى الموقف

محصوراً في اللحظات التي انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله في جسد آدم ، وهو تصور تَبيَّنَ قصورهُ عن فهم الموضوع في ضوء معطيات العلم ، واحتمالات النصوص القرآنية .

والذي نطمئن إليه هو أن سجود الملائكة كان يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية ، ابتداء من (آدم) ، وهو تكليف ماض إلى يوم القيامة ، تتولى الملائكة فيه المحافظة على بني آدم ، وإلهامهم الخير ، طبقاً لمشيئة الله سبحانه ، في مقابل ما توعد به إبليس آدم وذريته من الغواية والاحتناك والهيمنة والتضليل .

فالملائكة هم بموجب أمر السجود - أحد طرفي المعادلة في الحياة الإنسانية ، التي قامت على الصراع بين الخير والشر .

وعلى ذلك فقد سجد الملائكة ، وما زالوا ساجدين ، لآدم ، ولبني آدم ، وهذه هي الكرامة التي كفلها الله لهذه الذرية المصطفاة من خليقته البشرية طبقاً لما قررته آية سورة الإسراء : {{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً 70 }} - الإسراء . ، وهي أيضاً الكرامة التي أشار إليها إبليس في قصة الحوار في سورة الإسراء : {{ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ... 62 }} - الإسراء ، فقد احتقن حين رأى ما خص به

آدم من تكريم وكرامة ، فتوعد بأن يضله وذريته ، ليظهر عدم استحقاقهم لهذه الكرامة

{{ الفصل الرابع من الباب الثاني }}

مـوقـــف إبليـــس مـن السجـــود

لإبليس في قصة آدم موقفان : موقف مع رب العزة ، وموقف مع آدم وزوجه حواء ، الموقفان يتحولان في النهاية إلى موقف واحد ، هو موقف الصراع بين الخير والشر ، أو التناقض بين الملائكة والشيطان ، ومجال الصراع دائماً هو نفس الإنسان (آدم وذريته) .

ويظهر إبليس في مشهد التكليف بالسجود فجأة ، ودون مقدمات ، فلم يرد له ذكر قبل هذا المشهد ، وما كان سوى واحد من (الجن المنتشرين) في أرجاء الأرض ، ولعله كان ذا حظوة واقتراب من عالم الملائكة حتى جاء أمر السجود ، وكأنه مقصود به معهم ، والقرآن ينص على ذلك في قوله تعالى : {{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... 50 }} - الكهف .

ولعل تجاهل القرآن لذكره في خبر الأمر بالسجود - إنه كان لانه مجرد فرد من (الجن) ، على حين أن

. الخطاب كان لعالم الملائكة بإطلاق
فلما شذ في موقفه ، وأعلن رفضه لأمر الله .. {{ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ }} ؛ صار علماً على الشر في مقابل . استجابة الملائكة الذين صاروا أعلاماً على الخير

ونحسب أن الأمر لم يكن بالصورة التي يتخيلها العامة من المفسرين ، من مثول الملائكة ومعهم إبليس بين يدي الله ، جل وعلا ، وآدم واقف ينتظر حدوث السجود ، فقد استقر رأينا على أن السجود كان لآدم النبي الذي أختير خليفة ، والذي استهل به عهد الإنسان ، لا لآدم المخلوق ، فإن حدث الخلق كان قد مضت عليه ملايين السنين ، وإن لم يكن فرق بين السَّنَـةِ والسِّـنـةِ ، وعليه ، فإن تكليف الله سبحانه للملائكة بالسجود كان يعني تكليفهم بالأشغال بحفظ ذلك الخليفة النبي ، وذريته إلى يوم القيامة وقد رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهي ، وأن يعمل في خدمة الإنسان كالملائكة ، وبذلك انشق على الأمر الإلهي ، وصار عدواً لآدم وذريته ، كما صار عدواً لله خالقه ، وقد استعلن بهذه العداوة ، فلم !! يرجع عنها رغم زعمه أنه عبد الله

وعلى هذا تكون تَكَوّنَ التشكيل الجديد للحياة كما أرادها الله : صراعاً بين الخير والشر ، وتناقضاً بين الشيطان والملائكة في شأن الحياة الإنسانية ، وآدم وذريته موضوع الصراع ، وأدواته ، وهم أبطاله أو ضحاياه ، تمهيداً للمرحلة التالية من الملحمة الوجودية ، مرحلة

. الحساب ، والجنة والنار ، والخلود فيهما

إن إبليس الذي رفض السجود والتكليف - كان عاصياً لأمر الله من ناحية ، وكان أداة لتنفيذ إرادة الله من ناحية أخرى ، ولولا أنه رفض السجود ، وركب رأسه ما كانت هذه الدنيا ، وهو أمر لم يكن مقصوداً له حين . عصى ربه ، ولم يكن يدريه قبل أن يكون

ولنعد الآن إلى النص الأول من التنزيل ، الذي ذكر هذا المشهد في سورة (ص) : {{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ 71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ 72 فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 73 إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ 74 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ 75 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ 76 قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ 77 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78 قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 79 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ 80 إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ 81 قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 82 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 83 قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ 84 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن . تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ 85 }} - ص

ويبدو لنا هذا النص أشبه بتلخيص للحوار ، أو بالأحرى للقصة التي جاءت تفاصيل كثيرة منها في السورة التالية

نزولاً ، سورة (الأعراف) ، لكن حسبنا الآن هذا الموجز الذي يقتصر على جانب الحوار بين الله وبين المتمرد إبليس .

وفي بداية النظر في مكونات الحوار نؤكد هنا على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغي لله من جلال وعظمة وعلو شأن ، وهو سبحانه الخالق الباريء المصور ، وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه ، وهو لا يذيد في قدره عن أي مخلوق متمرد على أوامر الخالق ، مُصِرٍّ على معصيته ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .. هذا من ناحية ..
ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التي يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة .. أعني : صورة المواجهة المباشرة في هذا الحوار ، فلا ريب أن الشيطان كان في موقعه من الكون ، لا يستطيع أن يتجاوز قدره ، فيتطاول إلى المقام الأسنى ، مقام رب العزة ، ليجابهه بتلك المقولات ، فالله أعلى وأجل من أن تدركه الأبصار ، أو تحده الأوهام والظنون . وغاية ما نتصوره أن يكون الحوار قد جرى من خلال الوحي النفسي ، الذي أحاط بتفاصيله من يعلم السر وأخفى ، فهو - والله أعلم - حوار جرى في نفس إبليس ، حين رفض الأمر بالسجود ، من منطلق اعتقاده بأنه خير من آدم من حيث الأصل ، فهو من نار ، وآدم من طين ، وذلك رداً على ما ثار في نفسه من أن إباءه السجود لا تفسير له إلا الكبر والغطرسة ، وحينئذ جاءه الأمر

الإلهي - أيضاً - من طريق الوحي النفسي : {{ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }} .. وهكذا سار الحوار إلى نهايته ، بكل ما تضمن من حقائق وأقدار عبرت عنها كل رسالات الأنبياء ، من لدن آدم إلى محمد ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام .

قد يحلو لبعض المتفلسفة أن يروا في هذا الموقف الإبليسي تعبيراً عن القوة والشجاعة الأدبية .. بل وزاد بعضهم في المغالطة ، فرأى في هذا الموقف آية على منتهى التوحيد ، فهو لا يسجد إلا لله وحده !! .. وتخيل بعضهم أن إبليس حين تمرد على الله صار رمز للحرية .. !! ، وزعيم الأحرار الرافضين للقيود

والواقع أن موقف إبليس في ذلك الحوار يعكس ملامح شخصية متناقضة غبية ، غاية في الغباء والتناقد ، والضعف ، والجبن ، والجهالة ، وذلك إذا ما احتكمنا إلى المقاييس الأخلاقية المثالية ، وإنما أضفي عليه حلم الله الواسع هالة من التعاظم تليق بمتكبر حقود ، هو إبليس .

فليس من القوة أن يتصدى المخلوق للخالق ، ويتمرد عليه ، وهو يعرف يقيناً أنه هو الخاسر في النهاية .. بل وهو يعلم أنه يخاطب ربه ذا القوة المطلقة ، والبأس الشديد .

وليس من الشجاعة أن يتجرأ على الله ، وهو يعلم أن ذلك يؤدي به إلى جهنم ، وبئس المصير ، ثم يستمر في هذا التجرؤ إلى حد الوقاحــة والتحدي العبيط !!

وليس التوحيد إلا الإذعان بالعبودية والطاعة المطلقة لله وحده لا شريك له ، والانصياع لأوامره ، وإبليس حين رفض السجود لآدم لم يكن إلا رافضاً لأمر الله ، وقد أوقعه في هذا الجرم سوء تأوله ، أو لنقل : إنه قد ركَبَهُ في هذه اللحظة شيطان آخر أعتى منه - لو صح التصور - فأغراه بالتمرد ، وأعماه عن تبين وجه الحق الذي أدركته الملائكة ، فالملائكة هم في الواقع أذكى منه ، وأعمق توحيداً ، على حين خرج هو عن دائرة التوحـيد !!

ويكفي دليلاً على غباء إبليس أنه وقد خفي عليه المعنى الصحيح للسجود ، وهو موالاة آدم وذريته - إلى يوم القيامة ، كما أدركت ذلك الملائكة - انبرى بعقله الغبي يعقد مقارنة بين النار والطين ، ويزعم خيريته على آدم من هذا الجانب ، مع أن الطين عند التأمل خير من النار ، فهو زكي معطاء ، وهي أداة إهلاك وعذاب .

وفضلاً عن ذلك : فإن الأمر بالسجود لآدم لم يكن يعني أفضلية ، بقدر ما كان يعني إرادة تنظيم الحياة الجديدة على أساس من تعاون المستويات الخَلقية الثلاثة : النور

والطين والنار ، أو الملائكة ، والبشر والجن ، وخضوع الجميع لأمر الله وإرادته .

وهب - يا إبليس - أن السجود كان يعني الأفضلية ، فإن هذه الأفضلية لم تكن تعني الأصل المادي ، بل تعني تعلق الإرادة الإلهية بالأمر وتنفيذه من ناحية ، ثم إن معيار الأفضلية في مستواها العلوي ليس مادة الخلق ، من طين أو من نار ، بل هو التنافس في طاعة الله ، كما قال تعالى في محكم التنزيل : {{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... 13 }} - الحجرات . ، فقد يُحلّقُ في سماوات الرضوان جِنيٌّ من نار ، وقد يرسب في قاع الجحيم إنسِيٌّ من طين ، لأن المعيار هو التقوى .

لقد سجل إبليس على نفسه نقطة غباء ، حين حصر نفسه في ملاحظة الفرق بين الطين والنار ، ولو كان ذلك صحيحاً لفخرت الملائكة عليه بأنها من (النور) ، وهو خير من النار قطعاً ، بمقياس إبليس .. بل وبكل مقياس !! وإذا كان أتباع الشيطان وعَبَدَتهُ قد تصوروا أن إلههم هو رمز الحرية ، وزعيم الأحرار فما ذلك إلا أثر من آثار تسلطه بغبائه على عقولهم ، إن كانت لهم عقول ، لقد تعلقوا بمفهوم التمرد الذي أبداه إبليس في مواجهة أمر خالقه ، ولم ينظروا إلى أنه لم ينكر ربوبية الله ، في مطلبه أن ينظره إلى يوم البعث ، وفي قسَمهِ بعزة ربه ، وهو مسلك يصمه بالتناقض أو بالجنون ، إذ كيف يُقبَلُ منه أن يتمرد على (رب العزة) باعترافه ،

ويختار طريق الغواية والإغراء والذلة ، عامداً متعمداً .. اللهم إلا أن يكون غبياً غاية في الغباء ، أو منقاداً لشيطان أعتى منه ، تسلط عليه حتى أضله هذا الضلال المبين ؟ !! وحتى فقد القدرة على التمييز فلم يلحظ تناقضه الفاضح !! فإذا لم يكن هناك شيطان قبله ، فهو إذا إنطماس البصيرة ، وعمى البصر ، وهو أولاً وأخيراً الحقد الذي ملكه تجاه آدم وذريته .

أين الحرية إذن ؟ !! اللهم إلا أن يكون معنى الحرية هو الإنتصار للرذيلة ، والتحلل من كل قيمة تعمر بها الحياة .. أن يكون معنى الحرية تخريب الدنيا ، وتدمير بنائها الإلهي ، ونشر الفساد والإلحاد ، وإشاعة الفوضى والإنفلات ، وسيادة الحقد على وجوه الحياة كلها ؟ !!

ومع ذلك ، إن إبليس كان في موقفه مغروراً ، لأنه زعم لنفسه القدرة على إغواء الناس أجمعين ، إلا المخلصين منهم من عباد الله ، وعجيب أن يدرك هذا الفرق بين الغواية والإخلاص ثم يستمر في مزاعمه ، فكان نذير الله له بأن يملأ جهنم منه ومن أتباعه أجمعين ، وبهذا ختم الحوار - كما قدمته سورة (ص) - في أول سياق يتعرض لهذه القصة .

فإذا قرأنا ما جاء في السورة التالية لها ، في سورة الأعراف - الثامنة والثلاثين - وجدنا مذيداً من التفاصيل عن أساليب إبليس في إفساد الحياة الآدمية (الإنسانية)

، وهو مضمون قوله (لأغوينهم) : {{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ 16 ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ 17 }} - الأعراف .

وفي السورة التاسعة والأربعين - الإسراء - يخاطب إبليس ربه : {{ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً 62 }} - الإسراء .

ويجيبه الله سبحانه : {{ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا 63 وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا 64 }} - الإسراء .

وفي السورة الثالثة والخمسين - الحجر - {{ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 39 إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 40 }} - الحجر .

وفي السورة الثالثة والتسعين - النساء - يأتي حديث عن الشيطان ، والمقصود به إبليس - قال تعالى : {{ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا 117 لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا 118 وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ

الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا 119 يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا 120 }} - النساء .

وهكذا - عبر النصوص المتتابعة - يتضح المقصود بالغواية في قوله تعالى : {{ لأُغْوِيَنَّهُمْ }} ، فهو يقعد لبني آدم على الصراط المستقيم ، بأن يعترضهم على طريق الإسلام ، وهو يتسلل إلى حياتهم من كل اتجاه بوسوسته بقدر ما يستطيع ، وقد ورد في الحديث ((إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ؛ قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك فتتغرب ، فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك ، وتنكح إمرأتك ، فعصاه فقاتل)) (الكشاف 2 / 70 - 71) ، وإبليس يتوعد هنا بأن يحاصر بني آدم من جميع الجهات ، كناية في محاولته الهيمنة عليهم ليذهلهم عما خصهم الله به من الكرامة ، وهو ما جاء في النص التالي في سورة الإسراء - التاسعة والأربعين نزولاً - في الآية الكريمة : {{ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً 62 }} - الإسراء ، والاحتناك ، مأخوذ من الحنك ، فكأنه يتوعد بأن يلتهم بوسوسته بني آدم ، إلا قليلاً منهم ، ممن يعصم الله من غواية الشيطان ، وهذه صورة أخرى من تفسير معنى

الإغواء

توعد إبليس بأن يلتهم بوسوسته بني آدم ، إلا قليلاً منهم ، ممن يعصم الله من غواية الشيطان .

ويرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الوعيد : {{ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا 63 وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا 64 إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً 65 }} - الإسراء . ، وفي هذا الرد توصيف لوسائل الإغواء ، ومدى ما يمكن أن يكون لإبليس من أساليب تخريب الحياة الإيمانية ؛ أن يستفز الناس ويستخفهم بصوته ، وأن يجلب عليهم ويصيح بهم بكل ما يملك من خيل ورَجْل ، وهو كناية عن الضجيج والصخب ، والتسلط ، وقد يدخل في مضمون الصوت والجلبة كل كلام من العبث والمجون ، والفحش والبذاء ، ونداءات الجنس ، وأفلام الإنحلال ، وكل هذه أساليب شيطانية تحقق أهداف إبليس .

وحسبنا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : { إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم } ، فهو جار إلى المخ مباشرة ، ويبقى في الآيتين السابقتين قوله تعالى : {{ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ }} ، وقد

فسره الزمخشري بقوله : واما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها كالربا ، والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة ، والإنفاق في الفسوق والإسراف ، ومنع الزكاة ، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ، ودعوى ولد بغير نسب ، والتسمية بعبد العزى ، وعبد الحارث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحِرَف الذميمة ، والأعمال المحظورة ، (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة ، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وتسويف التوبة ، ومغفرة الذنوب بدونها ، والإتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر ، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً ، وإيثار العاجل على الآجل (الكشاف 2 / 457) .

وهذه هي أساليب الغواية الشيطانية التي نزلت فيها الآيتان من سورة الحجر ، وهي الثالثة والخمسون نزولاً : {{ قالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 39 إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 40 }} - الحجر . ، فعبارة (لأزين لهم في الأرض) تلخيص لما ورد من أساليب الغواية في سورة (ص والأعراف والإسراء) ، وقد جاءت الآيات من سورة النساء المدنية ، وهي الثالثة والتسعون نزولاً - وهي أيضاً آخر ما نزل في وصف ألاعيب الشيطان .. قال تعالى : {{ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا 117 لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا 118 وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا 119 يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا 120 }} - النساء .

والنص هنا يذكر من أساليب الشيطان (الإضلال) وهو لفظ عام يشمل كل ما مضى ، ويضيف النص أسلوب (التَّمنْية) بالأمانيَّ الباطلة من طول الأعمار ، أي : شق أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، وجاء الخامس ذكراً ، وتحريم الإنتفاع بها ، ثم يلي ذلك ما كانت تعرفه الجاهلية أيضاً من (تغيير خلق الله) ، وكان ذلك يتمثل في فقء عين الفحل الخامي ليعفى من الركوب ، كما يتمثل في خصاء بني آدم ، وقيل : إن المقصود تشويه الإسلام ، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وقيل : الوشم ، وقيل : التخنث (الكشاف 1 / 564 - 565) .

ونسجل هنا بعض الملاحظات :

الأولــى : أن إبليس فيما توعد به لم يكن يرسم خريطة الحياة الآدمية المستقبلة ، ولكنه كان في موقفه يطفح حقداً ، وينطق كذباً وغروراً .. هو صورة مما يتمنى أن يكون ، ولسوف نجد أن ما ذكره من عوائد الجاهلية لم يكتب له البقاء ، ولم يعد له أثر .. بل تلاشى من الحياة الإنسانية تماماً ، ولعله استبدل به أساليب أخرى تتناسب

. مع فنون العصر وجنونه

والثانية : أن تلقينا لمقولات إبليس لا ينبغي أن يخدعنا عن حقيقته ، وهي أنه غبي ومغرور ، بل هو (الغَرور) .. لم يتصف كائن بذلك سواه : {{ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ 5 }} - فاطر . ، أي : الغوى الأكبر ، وكل مواقفه وأساليبه تدل على ذلك ، ولسوف نزيد هذه الملاحظات عمقاً في حديثنا عن شخصية الشيطان كما . تصورها آيات القرآن

والثالثة : أن ما ذكرنا من أساليب الإغواء الشيطاني ليس إلا الشكل النظري ، والتوعد المغيظ - إن صح التعبير - فأما التطبيق العملي فهو في كل عصر بحسبه ، ومع كل إنسان بحسبه أيضاً ، والهدف الرئيسي أن يذيد من حصيلة جهنم من بني آدم ، حتى لا يصلاها وحده ، أو مع أتباعه من شياطين الإنس والجن وحدهم .

ويبقى من هذا الحوار ما جاء في قوله تعالى في سورة (ص) : {{ قالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ 77 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78 }} - ص . ، وقد جاء في مقابلها في سورة الأعراف : {{ قالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ 13 }} - الأعراف . ، كما تكرر هذا الأمر بعدما أظهر إبليس من وقاحة في مخاطبة المولى عز وجل : {{ قالَ

. اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا ... 18 }} - الأعراف

وما جاء في سورة الحجر لا يختلف عما جاء في سورة (ص) : {{ قالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ 77 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78 }} - ص . .. وقد استـــخدم النص الكريم أحد لفظين : {{ قالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا }} أو {{ قالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا }} ، وكلاهما يثير سؤالاً عن المقصود بالضمير في (منها) ، علام يعود هذا الضمير ولم يتقدم ذكر لما يعـود إليه ؟ .. وذلك مع ملاحظة أن الأمر موجه إلى إبليس وحده ، على خلاف الأمر الآخر الذي جاء في الحوار مع آدم وزوجه ، بعد الوقوع في الخطيئة : {{ قالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... 24 }} - الأعراف . ، أو : {{ قُلْنَا اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... 123 }} - طه . ، أو : {{ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً ... 38 }} - البقرة .

إن المتأمل في الأمـر الموجه إلى آدم وزوجه لا يعسر عليه أن يلاحظ عود الضمير إلى (الجنة) المذكورة في السياق المتقدم من القصة ، أما الأمر الموجه إلى إبليس وحده فهو الذي يثير التساؤل ، وقد ذهب الزمخشري إلى أن المراد هو الهبوط أو الخروج من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضـعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقر العاصـين المتكبرين من الثقلين .. {{ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا }} وتعصى {{ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }} ، أي : من أهل

الصغار والهوان على الله ، وعلى أوليائه لتكبرك .. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار (أُلْبِسَ الصغار) (الكشاف 2 / 69) .

ويرى صاحب المنار : (أن الهبوط هو الأنحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها ، ثم قال : والضمير عائد إلى الجنة التي خلق الله فيها آدم ، وكانت على نشز مرتفع من الأرض (المنار / 296) ، ولعل بيان الزمخشري أقرب إلى العقل ، لعدم تقدم ما يعود عليه الضمير ، سوى ما يفهم من المقام ، والأمر ليس إهباطاً مادياً .. بل هو نوع من الزجر ، كما قال سبحانه وتعالى : {{ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ .. }} ، ولأن الجنة التي وردت في الحوار مع آدم قد أسكنه الله إياها بعد صدور هذا الأمر إلى إبليس ، وقريب من ذلك ما ذكره صاحب المنار عن الحافظ ابن كثير قال : (يقول تعالى لإبليس بأمر قدر كوني : فاهبط منها بسبب عصيانك لأمري ، وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ؛ قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى {{ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }} .. أي : الذليلين الحقيرين .. معاملة له بنقيض قصده ، ومكافئة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلى يوم الدين) (المنار 8 / 297) ، وعلى نسق هذا الأسلوب تجري تعبيرات مماثلة على ألسنة العوام ، لا تراد

حرفيتها .. بل المراد مضمونها الموقفي ، كقول العامة : (اطّلَع مِنْها وهي تِعْمَر) ، فالمقصود هنا مجرد الانصراف عن الموضوع ، وعدم التدخل فيه .

ولقد يعين على تبين المراد بالأمر الموجه إلى إبليس (اهبط منها) - أنه اقترن في آية الأعراف بما يفسر هذا المراد ، وهو قوله تعالى : {{ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }} ، و (الهبوط) حركة رأسية من أعلى إلى أدنى ، و (الخروج) حركة أفقية من مكان إلى آخر ، والجمع بين البعدين على المستوى المادي متناقض ، فلم يبق إلا المستوى الأخلاقي ، وهو الهبوط من قمة الطاعة إلى درك التمرد ، والخروج من حرم الرضوان إلى حمأة الفسوق والعصيان ، وذلك يمكن تفسير الهبوط بالخروج .

فأما أن يقال : إن الأرض أقل من السماء فقول لا موضع له ، لأن الكون كله خلق الله وصنعته ، وهو مجال لأمره سبحانه ، ولله الخلق والأمر ، والأماكن تشرف بأنها صنعة الخالق ، لا بمن تعلق بها من المخلوقات طائعاً أو عاصياً ، فاستوى بذلك الظرف والمظروف ، وقد يخص الله بعض خلقه ببعض الأماكن ، كما يخص بعض الأماكن ببعض خلقه ، وكل ذلك في إطار الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

إن الله سبحانه لا يكره خلقه لذواتهم ، بل يكره منهم

أفعالهم التي نهاهم عنها ، ويدعوهم إلى مزايلتها ، مزايلة لإبليس الذي افتضح أمره ، وتعرى من ملابسه ، وأغرقهم في وساوسه ، كما أن الله يدعوهم إلى فعل المأمورات حتى يحبهم ، ويزيد في الإحسان إليهم ، فمن أطاع الله فقد ارتقى في درجات الملأ الأعلى صعداً ، ومن عصا الله فقد ارتكس في دركات العذاب حُدُراً ، وبئس المصير ، وهذا هو الأصل ، أو هي السنة التي عامل الله بها خلقه المكلفين بطاعته ، منذ كان التكليف .

{{ الفصل الخامس من الباب الثاني }}

بين إبليس وآدم في الجنة

يبدأ الفصل الثاني من الحوار في قصة الخلق ، بعد افتضاح أمر إبليس ، وإعلانه السافر عن عداوته لآدم وذريته - يبدأ الفصل بتوجيه الله لآدم أن يسكن هو وزوجه (حواء) الجنة ، وأول آية تحدثت عن هذا التوجيه هي آية الأعراف : {{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ 19 }} - الأعراف .

ولا مناص من التسليم بأن آدم هو ابن الأرض ، وقد كانت حياته قبل الاصطفاء وبعد الاصطفاء على الأرض ، وقد اختار الله للزوجين بقعة رائعة من البقاع المثمرة ، توفر فيها الغذاء ، والكساء ، والماء والظل ،

وسائر مقومات الحياة الرخية ، وقال له : {{ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى 118 وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى 119 }} - طه . ، وكان لهذه الجنة (أو الحديقة) وظيفتان :

الأولـى : أن يمارس فيها آدم أساسيات الرسالة التي اصطفاه الله لتبليغها إلى ذريته ، ولا سيما التكاليف الأخلاقية ، والتعاليم الدينية المتصلة بالدنيا والآخرة ، وهو ما يبدو متألقاً في قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) في سورة المائدة ، ولا ريب أن الولدين قد تلقيا عن أبيهما كل ما دار في حوارهما من تعاليم كالتقوى والفجور ، والتوحيد والشرك ، والحلال والحرام ، والعدل والظلم ، والجنة والنار ، وفي هذه الجنة الأرضية كانت الخطيئة التي سوف نتعرض لمناقشتها بعد قليل .

الثـانيـة : أن هذه الجنة كانت بمثابة الملجأ الآمن الذي يعزل آدم وزوجه بعد الاصطفاء - عن سائر البشر - خارج نطاق التكليف الديني . ريثما تخلي الساحة الأرضية من وجودهم .. إذ إن الأرض لم تكون بعد ذلك إلا لآدم وذريته ، وهي بداية العهد الإنساني . لقد خلق آدم من تراب الأرض ، ليعمر هذه الأرض ، وذلك قدر الله منذ شاء خلق البشر ، وهم أصول آدم .

وما أشبه ما حدث آنذاك ، حين عزل آدم وزوجه في

الجنة ، بما حدث بعد ذلك إبان الطوفان ، فقد حمل نوح في فلكه من كلٍّ زوجين اثنين ، وأهله معه ثم تولى الطوفان تطهير الأرض من المشركين وآثارهم ، وقاد نوح الفُلْكَ حتى {{ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 44 }} - هود . ، لقد كان بدأ العهد الإنساني يتطلب إخلاء الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء وهو ما تولت القدرة الإلهية تنفيذه فترة سكني آدم وزوجه في الجنة .

على أننا ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة ظهور زوج لآدم ، لم يرد ذكرها قبل ذلك ، وهو ما يعني أن آدم كان متزوجاً قبل الاستخلاف والاصطفاء ، وذلك ما يدل عليه سياق القصة . يقول الشيخ رشيد رضا : (والآية تدل على أن آدم كان له زوج .. أي : امرأة ، وليس في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتاً ، انتزع في أثنائه ضلع من أضلاعه فخلق له منه حواء امرأته ، وأنها سميت امرأة (لأنها من أمرىء أخذت) ، وما روى في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات ، وحديث أبي هريرة في الصحيحين : (فإن المرأة خلقت من ضلع ..) ، على حد {{ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... 37 }} - الأنبياء . ، بدليل قوله : (فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء) .. أي : (لاتحاولوا تقويم النساء بالشدة) (المنار 8 / 308) .

وعلى أية حال فإن اختيار القرآن إبراز وجود الزوج كان على أعتاب الجنة ، ودخل الزوجان الجنة أو السكن الذي اختاره الله لهما ليبدءا حياة لا يدريان من ملامحها إلا ما أذن الله لهما بمعرفته ، فليست هذه الجنة نهاية المطاف ، ولكنها مرحلة سوف تشهد أحداثاً وفصولاً في قصة الحياة على هذه الأرض .

على أن من الضروري أن نشير هنا إلى أن دلالة لفظ : (الجنة) على (البستان الأرضي) هي الدلالة الحقيقية والأصلية ، وفي مقابلها دلالة اللفظ على (دار النعيم الأخروي) ، وهي دلالة مجازية ، جاء بها القرآن ، كما جاء بالدلالة الحقيقية ، ومن ذلك ما جاء في سورة (القلم) ، وهي السورة الثانية نزولاً - من قوله تعالى : {{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ 17 وَلَا يَسْتَثْنُونَ 18 }} - القلم . ، وهو أول استعمال للفظ (الجنة) في القرآن ، فجاء به على دلالته الأصلية (البستان) ، ثم ثنّى بذكر جنة الآخرة في نفس السورة ، في قوله تعالى : {{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ 34 }} - القلم . ، وكأن القرآن قصد إلى إثارة المقابلة بين (جنة) الدنيا ، وهي عرضة للنوازل ، و (جنات النعيم) في الآخرة .. ينالها المتقون ، وذلك في فترة مبكرة جداً من نزول الوحي القرآني ، فسورة القلم هي ثاني سور القرآن نزولاً .

ونعود إلى الجنة وساكنَيْــهَا اللذين ذودهما ربهما بكل ما يلزمهما من تنبيهات وتحذيرات من حقد إبليس عليهما ، ولكن هيهات لآدم وزوجه ، وهما حديثا عهد بالتكاليف ، قليلا الخبرة بألاعيب العدو وأخلاقه الوضيعة .. هيهات لهما أن يقاوما ما واجها معه من إغراء ؛ أثار شهيتهما ، وحرك غرائزهما .

لقد كان توجيه الله لهما : {{ كُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ }} ، وما أعظم ما أباح لهما من نِعَم ، وما منحهما من الحرية ، بالقياس إلى ما منعهما منه ، وجاء الشيطان يوسوس لهما ، صارفاً لهما عن نعم الله الوفيرة والمباحة ، مركّزاً على تلك الشجرة المحظورة ، وهي معيار الطاعة والمعصية .. جاء الشيطان قائلاً لهما : {{ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20 }} - الأعراف . ، كانت القضية واضحة ، تتعلق بتوجيه الله سبحانه لهما ألا يأكلا من الشجرة ، وكان هدف الشيطان أن يأكلا من الشجرة وأن يفعلا ذلك بأي ثمن من الكذب والخداع ، فهو إذاً التصادم بين أمر الله وهدف الشيطان ، وقد بدأ يمارس مهمة الإغواء ، وينفذ وعيده الذي أعلنه {{ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 39 }} - الحجر . ، ولا ريب أن تلك الشجرة كانت مغرية ، تدعو إلى تجربة مذاقها ، وجاء إبليس بكلام كله كذب ، فربط بين الشجرة والارتقاء إلى درجة الملائكية ، أو تحقيق الخلود ، وكلا الأمرين مطمح لآدم وزوجه ، لقد

علما أن لله ملائكة مقربين ، مخلوقين من النور ، لهم عند الله الدرجات العلى ، كما علما أن كل نعيم لا محالة زائل بالموت ، كما فنيت اجيال قبلهما ، ولا مهرب من الموت إلا بتحقيق الخلود ، وما أعزه مطلباً ، وما أهونه وسيلة ، أن يأكلا من الشجرة .. مجرد مذاق .. ولن يكلفهما ذلك إلا أن يمدا أيديهما إلى ثمرها ، وزادهما تعلقاً بالدخول في هذه التجربة أن اللعين أخذ يقسم لهما بالله إنه يريد صالحهما ، وإنه ناصح لهما {{ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ 21 }} - الأعراف . ، وهو كاذب في كلامه ، كاذب في قسمه ، ولكنهما لم يتصورا أن يوجد من يجرؤ على الكذب بهذه الصورة الفاجرة ، حتى ولو كان إبليس ، وغاب عنهما تماماً في هذه اللحظة تحذير الله لهما : {{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى 117 }} - طه . ، وعلا صوت الشيطان في أذنيهما يدعوهما أن يأكلا من الشجرة ، {{ فَأَكَلاَ مِنْهَا }} ، في لحظة ذهول وضعف ، وكانت القشة التي قسمت ظهر البعير .. كانت الخطيئة التي جعلتهما من الظالمين .. يا لهول الموقف !!

أية شجرة هذه التي كان الاقتراب منها سبباً في تتابع تلك النتائج الهائلة في حياة الإنسان ؟!

لسنا نميل إلى التعويل على معرفة نوعها ، أو أثرها ، فكل ذلك لا يهم ، إذا ماقيس بموقف معصية الإله العظيم ، رغم التحذير والتذكير ، يقول الأستاذ سيد

قطب : (ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة ، لأن تحديد جنسها لا يذيد شيئاً في حكمة حظرها ، مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود ، لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور ، ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن يدرب المكوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته ، ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها .. لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هي خاصية (الإنسان) (الظلال 8 / 129) .

وهكذا - رغم التحذير الإلهي - سقط الزوجان في شرك الغواية : {{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... 22 }} - الأعراف . ، وعبارة القرآن (فدلاهما بغرور) تعني أنه أوقعهما في الغرور والإنخداع حين استدرجهما إلى الحضيض ، والتدلية : الإسقاط إلى الأسفل وتلك هي النتيجة الأخلاقية التي قصد إليها الشيطان ؛ أن يكشف عن ضعف آدم وزوجه ، لأنهما - في رأيه - لا يستحقان التكريم الذي خصهما الله به ، وبذلك لم يعد الشيطان وحده هو المتورط في المعصية .. بل (استوى الماء والخشبة) ، فهما في الخطيئة سواء ، غير أن وصف القرآن للآثار المادية للأكل من الشجرة يستاهل الوقوف عنده والتأمل في واقعة المعقول .

لقد تناقل المفسرون رأياً واحداً عن السوأة ، وهي العورة ، وقالوا - دون اختلاف - إن نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه ، وكانا من قبل لا يريان ذلك لمواراة سوأتهما عنهما ، والغريب أن يقول صاحب المنار : (والأقرب عندي أن معنى ظهورهما لهما أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفي عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها ، وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يخصفان ، أي : يلزقان ، أو يضعان ويربطان على أبدانهما من ورق الجنة) (المنار 8 / 311) .

إن كل مايقال في مسألة (السوأة) هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ووصفها لما حدث . وعلى ذلك يجوز أن نجتهد في فهمها انطلاقاً من الملاحظات الآتية :

1 - أن القرآن ذكر (السوأة) بالجمع مضافاً إلى مثنى ، وهو ما يعني أن ما بدا منهما ليس عورتيهما .. بل هي عورات كثيرة ، ولو كانت العورة الغليظة هي المقصودة لقال النص الكريم (بدت لهما سوأتاهما) ، لكن الجمع يوحي لنا بمعنى آخر .

2 - افتراض أنهما فوجئا برؤية ما لم يكونا يريانه

مخالفاً لمعنى الزوجية ، وسنة الله فيها ، وآراء المفسرين قائمة على افتراض أنهما أول زوجين في تاريخ البشرية ، وهو أمر أثبتنا خلافه ، فقد كان الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث - منذ ملايين السنين - بلا قيد أو شرط خلال العهد البشري ، حيث لم يكن دين ولا تكليف .

3 - أن آدم لم يكن يعيش في الجنة عارياً بدائياً ، وهو ما قرره القرآن في قوله تعالى : {{ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ... 27 }} - الأعراف .

4 - قوله تعالى : {{ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... 22 }} - الأعراف . ، يؤكد أن الضمير في (عليهما) لا يعود على (السوءات) ، وإلا لقال : (عليها) ، بل إن عائد الضمير هو (آدم وحواء) بشخصيهما ، والصورة كما تبدو لنا في موقف الزوجين صورة هائلة :

فقد شعرا حين ذاقا الشجرة أنهما خالفا أمر ربهما ، وقد حزرهما من الشيطان تحذيراً صارماً ، ومعنى ذلك غضب الله عليهما ، وهو ما هيج مشاعرهما ، ووضعهما في مواجهة عاقبة لا يحتملانها .

وركبهما الندم من هذا التعري أمام الله ، فأخذا يحاولان

التخبؤ والاستتار حياءً منه وخجلاً ، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنة غطاء يسترهما ، وكأنهما يهيلان عليهما هذا الورق .

وبَيْنَما هما في هذه الحال الرعيبة {{ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ 22 }} - الأعراف . ، وكان هذا النداء بمثابة حبل الإنقاذ لهما فتعلقا به وقالا : {{ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ 23 }} - الأعراف .

وهذه الكلمات هي التي أشارت إليها الآية الكريمة : {{ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ 37 }} - البقرة .

وقد عبر القرآن عن الموقف كله بقوله : {{ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى 121 ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى 122 }} - طه .

وأرجع سبب الوقوع في الغواية إلى أنه لم يكن عامداً .. بل ناسياً : {{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا 115 }} - طه .

ويمكن تفسير نسيان آدم بأنه داخل في مضمون الجهالة في قوله : {{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ

. بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... 17 }} - النساء

وهو موقف يختلف عن موقف إبليس الذي علم السوء ، وفعله ، وأصر عليه ، ولذا استحق آدم وزوجه أن يتوب الله عليهما .
وعند هذا المقطع من تسلسل الأحداث اكتملت معادلة الحياة الدنيا بكل عناصرها : (الأمر - الوسوسة - المخالفة - الندم - المغفرة) ، فآن الأوان لنزول آدم إلى معترك الحياة الدنيا ، وقد ترسخت في عقله ونفسه تلك المعادلة ، بعد أن هيئت له الساحة ، وأخليت الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء ، ولم يعد فيها سوى الإنسان الجديد ، (آدم : أبي الإنسان ، وحواء : أمه) في مواجهة إبليس عدوهما اللدود ، وقامت الحياة على هذا العداء المتبادل : {{ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ 24 قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ 25 }} - الأعراف .

ولسنا بحاجة إلى تكرار أن الأمر بالهبوط مرادف للأمر بالخروج .

{{ الفصل السادس من الباب الثاني }}

اللغة والأسمـــاء القديمـــة

الله

المـلائكـــــة - آدم - إبليـــس - الشـيـطان

*****

-"- الله -"-

كان القرآن - ولا يزال - الوثيقة اللغوية التي نعتمد عليها في معرفة الأسماء التي وردت في قصة الخلق ، وما يتصل بها ، وأقدم الأسماء على الإطلاق هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والمفروض أنه قبل ظهور (الإنسان) - لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهيئه لهم طبيعة مرحلة النمو التي يعيشونها ، فقبل أن يكون العقل ، وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يدركون شيئاً عن حقيقة الحياة ، وطبيعة الوجود ، إلى أن كان اصطفاء (آدم) فعرفت الخليقة خالقها ، بدءاً من معرفة آدم لربه ، وفي نفس الموقف برزت أسماء بعض المخلوقات : الملائكة - البشر - آدم - إبليس ، ولا ريب لدينا في أنها أسماء قديمة ، استخدمت قبل أن تظهر العربية إلى الوجود ، وقد وردت هذه الأسماء في كلام الله ضمن حديث القرآن عن قصة الخلق ، أولى قصص الوجود البشري والإنساني معاً .

ونحن لا نتصور أن هذه الأسماء كلمات مأخوذة من العربية للتعبير عن شخصيات القصة ، فقد كانت القصة قبل أن تكون اللغات بالشكل المعروف ، نوعاً وعدداً ، وقد عرفت تلك الشخصيات بهذه الأسماء التي جاءت في كلام الله ، وهذا هو السر في شيوعها في كثير من اللغات الإنسانية بصور نطقية متقاربة ، فلفظ الجلالة : (الله) معروف هكذا في اللغات السامية القديمة ، ومنها العربية ، كما تعرفه اللغات الأوروبية .

ولقد حاول الاشتقاقيون أن يردوا لفظ الجلالة (الله) إلى جذر اشتقاقي ، فقال كثير منهم بأنه مشتق من (أَلِهَ) بمعنى : فَزِعَ ، أو بمعنى : تحير ، أو بمعنى : عبد ، أو بمعنى : أقام ، وقال بعضهم : إنه من (وَلِه) بمعنى : أحب ، وقال غيرهم : إنه من (لاه) بمعنى احتجب أو ارتفع .

وأغلق بعضهم باب الاشتقاق وقال بأنه غير مشتق .

وفريق ثالث قال : بأنه غير عربي ، فهو سرياني - أو عبراني .

والأكثرون على أنه عربي .

والذي نراه أن ذلك كله خبط في ظلماء مدلهمة لأن الله سبحانه أخبر عباده بأنه (الله) ، وطلب منهم أن يعبدوه

ويوحدوه لأنه (الله) ، والخطاب هنا ليس عربياً لقوم عرب .. بل هو خطاب إلهي كوني صدر عن خالق الكون ، والإنسان ، واللغات ، فهو إذن ليس أسماً صاغته ألسنة المخلوقات .. بل تلقته هذه الألسنة من الملأ الأعلى عَلَماً على ذات المعبود بحق ، واستوعبته العربية ، كما استوعبته سائر اللغات التي تلقت رسالات السماء ، ونطقت به حسب قوانينها ، وتقاليدها ، وقدرتها النطقية . فلا ينبغي أن يدرج في معجم العربية على أنه كلمة من كلماتها .. بل على أن اللسان العربي نطقه هكذا كما لقنه ، وكما نطقه غير العرب ، وقد اخترع العبرانيون إلوهيم ، أو يهوه ، كما ورد إيل ، وإلّ ، ولكن يبقى (الله) ، وتتلاشى كل الاختراعات أو الواردات فلفظ الجلالة هو أصل الأسماء ، وأولها ، ومصدرها ، كما أنه مصدر اللغات والألسنة ، وصدق الله : {{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ... 22 }} - الروم . ، وهو القديم ، وما سواه محدث ، وهو قديم بذاته ، وبإسمه قبل أن تكون اللغات .. بل قبل أن تكون الكائنات .

-"- الملائكـــة -"-

وأما عن (الملائكة) فهي كلمة إسلامية أيضاً .. لم تستخدم في العربية قبل أن يرد ذكرها في بداية الوحي ، في سورة المدثر ، وهي رابع سور القرآن نزولاً ، وقد ردها اللغويون إلى الجذر (ألك) ، الذي اشتقت منه كلمة (مَألك) ، ثم حدث قلب مكاني ، فصارت (

مًلأك) ، ثم جمعت فصارت (ملائكة) ، ولا دليل على استخدامها في العربية قبل القرآن .

وأقطاب (الملائكة) ، وفي مقدمتهم (جبريل وعزرائيل) ، جاءت تسمياتهم مركبة ، وهي شائعة في كثير من اللغات ، فكلمة (جبرائيل) جزءُها الأول (جبر) بمعنى (رجل) ، وكلمة (عزرائيل) جزءُها الأول (عزر) بمعنى (قوة) ، وهما مضافتان إلى لفظ (إيل) .. أي : الله ، وكأن الأول يعني (رجل الله) ، والثاني هو (قوة الله) ، وهي ترجمة متخيلة بقدر ما تسعه اللغة الإنسانية ، وإلا فليس في الملائكة رجال أو نساء ، ولا يليق أن تحصر قوة الله في ملك مخلوق واحد .. بل إن التجريد هنا غير لائق ، إذ إن القوة (ومنها : القوي) من أسماء الله وصفاته الحسنى ، وليس مَلَكاً بعينه ، خاصة أن اختصاص تَوَفيَّ الأحياء مَعْزُوٌ في القرآن إلى الله سبحانه : {{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ ... 42 }} - الزمر . ، ومَعْزُوٌ إلى رسل الله من الملائكة : {{ حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ... 61 }} - الأنعام . ، ومَعْزُوٌ إلى ملك الموت {{ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ... 11 }} - السجدة . .. أي : إن قوة الإماتة ليست محصورة في ملك بعينه ، وعلى أية حال فإن القرآن لم يذكر من أسماء الملائكة سوى (جبريل وميكال) ، ولسنا مكلفين بترجمة معاني هذه الأسماء ، أو التعمل معها على أساس معانيها ، فالأسماء لا تعلل ، إنما هي كتل صوتية لا يلتفت إلى مكوناتها .

إن ذلك يعني أن هذه التسميات كانت قبل اللغة العربية .. بل هي فعلاً قبل اللغات البشرية ، وأن ما حاول الاشتقاقيون أن يستخرجوه من المعاني في ضوء الربط بيم الاسم ، وجذره اللغوي المفترض - هو في الحقيقة !! افتعال يقلب القضية رأساً على عقب

-"- آدم -"-

لقد حاول الاشتقاقيون أن يجدوا لآدم أصلاً في (أديم الأرض) الذي خلق منه ، والحق - في نظرنا - أن أديم الأرض اشتق من (آدم) الذي يعني (الإنسان) بالمعنى العام في كثير من اللغات ، وكان مرتبطاً دائماً بالتراب ، والطين ، فأطلق على مادته التي خلق منها : أديم ، على سبيل الاشتقاق من الجوامد ، وهو مجاز مرسل علاقته الأصلية والفرعية ، إن صح التصور .

ويمكن أيضاً أن يقال : إن (آدم) بمعنى : الجلد .. مشتق كذلك من (آدم) ، ويطلق على الجلد : البشرة ، وللبشرة علاقة لفظية بالكلمة القديمة الأولى في ملحمة الخلق ، كلمة (بشر) التي تفردت بها العربية - كما سبق أن قلنا .

-#- إبليــس -#-

أما كلمة (إبليس) فهي موجودة في لغات قديمة كاليونانية (ديابولوس) ، وهي كلمة تبدو مركبة من جزئين : (ديا + بولوس) ، وقد أخذت اللغات الأوروبية ، باعتبرارها أحدث من اليونانية - الجزء الأول من التركيب - (ديا) ، (ديابل Diable) ، وأخذت العربية وأخواتها الساميات الجزء الثاني من التركيب كما هو (إبليس) مع تنوع في طريقة النطق ، هذا ما قرره محقق الزينة .

ولا يبعد في تقديرنا أن تكون الكلمة من عطاء القرآن للعربية .. وهي أقدم اللغات السامية . فلم نعثر على ما يشهد بوجودها قبل الإسلام في لسان العرب .. بل إن الكلمة ليس لها مقابل لفظي أو دلالي في العبرية ، وقد وردت لأول مرة في القرآن في سورة (ص) .. أي : في سياق قصة آدم ، وذكر المعجم الوسيط أن جمع الكلمة : أبالس ، وأبالسة .
أما كيف عالج أهل اللغة لفظها ومعناها ؟!

فقد قال اللغويون العرب : إنه على وزن إفعيل ، مشتق من أبلس الرجل : إذا انقطع ولم تكت له حجة ، ويقال : هو من يَئِسَ ، قالوا في تفسير قوله تعالى {{ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ }} ، قال : يائسون ، قال ابن عباس : (لما لعنه الله أبلس من رحمته) ، وقال الفراء : (مبلسون ، يعني : في العذاب) ، وقال : (المبلس : اليائس من النجاة والقانط ، وهو أيضاً المنقطع الحجة) .

ويقال أيضاً : أبلس ، إذا سكت ولم يُجِرْ جواباً .. ، ويقال : المُبْلسُ : الحزين النادم ، وقد أبلس الرجل إبلاساً ، أي : اكتأب وحزن ، وفي قوله تعالى {{ يُبْلِسُ الْـمُجْرِمُونَ }} ، أي : يندمون ، ويكأبون وييأسون ، وقال مجاهد في قوله تعالى {{ يُبْلِسُ الْـمُجْرِمُونَ }} .. قال : الإبلاس : الفضيحة ، وقال غيره : الإبلاس : الخشوع .. {{ فَإِذَا هُم مُّـبْلِسُونَ }} ، قال : خاشعون ، وقال غيره : المبلس : المتروك المخذول .

قال صاحب الزينة : (وكل هذه المعاني قد جاءت في الإبلاس ، وهي قريبة بعضها من بعض ، فكأن إبليس هو مأخوذ من ذلك ، لأنه افتضح بعصيانة ، فيئس من رحمة الله ، وحزن وندم ، فصار مخذولاً متروكاً ، ذليلاً منقطع الحجة ، ساكتاً ، فقيل له : إبليس) (الزينة 1 / 192 - 193) .

هذه - كما قلنا رؤية الاشتقاقيين العرب ، ويكفي أن نلاحظ خطأ استنباطها حين رأى صاحب الزينة أنه قيل له : (إبليس) بعد أن حدث له ما حدث ، على حين أن (إبليس) كان قبل أن يحدث شيء من ذلك !! وإن أطلق عليه بعضهم قبل افتضاحه (عزازيل) !! ولم يثبت ذلك !!

ويرى علماء الغرب أن الكلمة دخلت محرّفه في العربية

من اليونانية : (ديابولوس) ، وجاء في المعجم الكبير 1 / 161 : أن العرب حذفت (ديا) في أول الكلمة ، وتوصلوا للنطق بالساكن بزيادة الألف في أوله ، وأنه لم يرد ذكره في المعاجم الآرامية والسريانية .

يقول محقق الزينة : (قد يكون العرب أخذته من اليونانية مباشرة باتصالهم بنصارى العرب الموالين للكنيسة البيزنطية ، كما أشار إليه (جفري) (الزينة : السابق - هامش) .

ونقول بعد هذا كله ما سبق أن قلناه من أن ذلك افتعال يقلب القضية رأساً على عقب ، والذي نراه هو اللفظ قديم ، مستمد أساساً من علم الله بالقضية ووقائعها ، وعناصرها ، وأن هذه الألفاظ دخلت اللغات الإنسانية عن طريق الأديان ، والكتب المقدسة ، بأية لغة كانت هذه الكتب . وقد يتفق هذا مع ما قاله أبو عبيدة من أن اللفظ اسم أعجمي ، غير أن الأعجمية تعني في اصطلاح العلماء : أن اللفظ (إبليس) مستمد من لغة غير عربية ، وهو ما نحاول هنا أن ننفيه ، فاللفظ مستمد من علم الله ، وهو اسم لذلك (المخلوق اللعين) ، ويكفي أن نتعامل معه بهذا الإعتبار ، دون حاجة إلى تأصيله في العربية ، أو تحليل مادته اللغوية ، وإرجاعه إلى جذر اشتقاقي ، فذلك كله في نظرنا تلفيق لا يفيد اللغة شيئاً ، مهما فسر (الإبلاس) بما ذكر من المعاني السابقة ، وقد حدث للكلمة في الاستعمال العربي بعض

(النضج ، فجمعت ، واشتق منها (الأبلسة
-#- الشـيـطـان -#-

أما كلمة (شيطان) ، وجمعها : شياطين فهي عربية قديمة ، وقد تكون من الأصل : شطن ، بمعنى البعد ، فالكلمة بوزن فيعال ، والنون أصلية ، وقد تكون من الأصل شيط ، شاط ، أي : احترق من الغضب ، فيكون بوزن فعلان ، نحو : حيران ، وهيمان ، فالنون زائدة .
. ((الزينة 179 - 180

ويطلق على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب : شيطان ، ويقول العرب لكل منفرد بقوته وجلده ، قوي : مستقل بنفسه ، منهمك في أمره : شيطان ، قال جرير
أيام يدعونني الشيطان من غزلي *** وكُنَّ يهوينني إذ كنت شيطاناً
أي : إن النساء يدعونه (شيطاناً) لتفرده بأفعال الشيان
. من الغزل وغيره

ويطلق اسم (شيطان) على الحية خفيفة الجسم قبيحة المنظر ، وهو أحد وجهي التفسير في قوله تعالى : {{ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ 65 }} - الصافات . أنظر
. ((الزينة / 181

ومن صفات الشيطان : (المارد) ، وهو في قوله تعالى

: {{ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ 7 }} - الصافات . ، وهو خارج عن الطاعة ، ومنه أيضاً قوله تعالى : {{ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا 117 لَّعَنَهُ اللّهُ ... 118 }} - النساء .

ومن صفاته (الرجيم) في قوله تعالى : {{ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ 98 }} - النحل . ، والرجيم هو المرجوم ، كاللعين أي : (الملعون) ، وهو أيضاً كذلك بمقتضى الخطاب الأول إليه : {{ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78 }} - ص .

ومن صفات الشيطان (الغول) ، وهو ساحر الجن ، وكذلك (السعلاة) وهي أخبث من الغول وأعظمها سحراً .

ومن صفاته : (الوسواس الخناس) ، والوسواس هو الذي يلقي بوسوسته في القلوب ، حتى يختبل الإنسان ، والخناس هو الذي يهرب عند ذكر الله سبحانه .

ومن صفاته (الغرور) لم يوصف بذلك غير الشيطان ، وهو وصف على فعول ، مثل ظلوم وحقود وتؤوم - صفات مبالغة - وقد يفسر (الطيف) أو (الطائف) بأن المقصود به الشيطان ، وكذلك (الخيال) ، ويذكر صاحب الزينة أن من الشياطين جنساً يقال له : (الخُبَّل) ، وهم الذين يُخِّـبلّون الناس ويؤذونهم ، وقد يدفعونهم

إلى الجنون .. يقال : رجل مُخَبَّل : إذا كان به مس من الجن ، والخبال هو الجنون واختلاط العقل .

ومن أسماء الشيطان أيضاً (الطاغوت) ، وهو وارد في قوله تعالى : {{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ... 51 }} - النساء .
، وقوله : {{ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ... 257 }} - البقرة .

ومن أجناس الشياطين : العفريت ، وجمعه : عفاريت ، وهو وارد في القرآن : {{ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ... 39 }} - النمل . ، والعفريت من كل شيء : (المبالغ ، ويقال : فلان عِفْرِيَةٌ نِفْرِية ، وعُفارية . وهو الموثق الخلق الشديد (المصحَّح) (الزينة / 191 .

ولم يذكر صاحب الزينة من صفات الشيطان : القرين ، وجمعه : قرناء ، وقد وردت الكلمتان في آي القرآن ، الأولى في قوله تعالى : {{ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 36 }} - الزخرف . ، والثانية في قوله تعالى : {{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... 25 }} - فصلت . ، كما ورد ذكر (القرين) في سورة (ق) ، في الآيتين : {{ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ 23 }} - سورة ق . ،

وقوله : {{ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ 27 }} - سورة ق .

وورد ذكر القرين أيضاً في سورة النساء ، في قوله تعالى : {{ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا 38 }} - النساء .

وواضح أن وظيفة القرين بمقتضى الآيات شر كل الشر ، غير أن أثر وجود القرين انحصر في الغفلة عن ذكر الله ، أو محاولة الإغفال ، والمشاغلة بالدنيا ، والعكوف عليها ، دون تجاوز ذلك إلى اختصاص الشيطان الأكبر (إبليس) الذي يحرص على أن يحقق من وراء إغوائه الشرك بالله ، فهو يترك أسباب الشرك من المعاصي ، ومقدماته من الآثام لمساعديه من شياطين الجن والإنس ، حتى إذا شارف الإنسان حدود الشرك تحرك الملعون بصوته وخيله ورجله ليتم مهمته الكبرى ، ويشهد انتصار وعيده ، وتفوق الغواية على الهداية .

وجاء في الآثار ذكر شيطان اسمه (خنزب) ، فذلك في حديث مرفوع عن ابن مسعود : أن للشيطان لمة للإيعاد بالشر ، والتكذيب بالحق ، والقنوط من الخير ، ويبدو أن هذا الشيطان متخصص في الحيلولة بين المؤمن وصلاته . (زاد المعاد 2 / 39) .

-#- إبليس في القرآن -#-

وقد ورد ذكر إبليس في القرآن إحدى عشر مرة ، منها عشر مرات في مكة ، ومرة واحدة في المدينة في سورة البقرة .
ويلاحظ أن مواضع ذكره لم تتجاوز قصة آدم في تسع مرات ، وجاء ذكره مرتين في غير القصة ، إحداهما في سورة الشعراء ، في سياق يتحدث عن المشركين ، ممن اتخذوا من دون الله آلهة ، قال : {{ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ 94 وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ 95 }} - الشعراء ، وموضوع الآية جنود إبليس ، لا إبليس ذاته ، وإن كان إمام أهل النار ، والأخرى في سورة سبأ في سياق يتحدث عن موقفهم من دعوة الله ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، وسجل ذلك عليهم فقال : {{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ 20 }} - سبأ . ، وواضح أن الواقعة تشهد بأن إبليس ماثل بشخصه في الموقف ، فقد حقق وعيده حين قعد لبني آدم على طريق الإسلام : {{ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِمَ }} - فدفعهم إلى اتخاذ الشركاء ، وأضلهم فكانوا من الغاوين .

فإذا لاحظنا أن إبليس لم يذكر في وحي المدينة سوى مرة واحدة ، في سورة البقرة - وأن أكثر ما ذكر كان في الفترة المكية ، وفي قصة آدم وحدها - أدركنا أن اسم (إبليس) ليس علماً على جنس من المخلوقات

الخفية .. بل هو اسم ذات ، تفردت بقيادة الخلق إلى الشرك ، وهو الذي مثل الدور الأكبر في قصة بداية العهد الإنساني ، ولقد كان لذكره في مكة مناسبة ضرورية ، حيث كثر أولياؤه من كفار مكة ، وعتاة الجاهلية ، فكان التركيز عليه لإبراز دوره ، والتنفير منه .

فأما في المدينة فقد برزت على الساحة أحداث أخرى ، حين كثر أنصار الحق ، وقامت دولته ، وصرحت المواجهة بين جند الله ، وأعدائه ، فناسب أن يقوم بمهمته معه ذريته من كبار الشياطين وصغارهم ، وهم الذين تم التعريف بهم وبشرورهم في كثير من آيات الوحي المكي والمدني ، على سواء .

وقد أشار القرآن إلى أن لإبليس ذرية ، فقال : {{ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ... 50 }} - الكهف . . ولا ندري كيف تكاثرت الشياطين من ذرية إبليس .. اللهم إلا إذا أخذنا ما ذكره صاحب المستطرف من أن إبليس (لا يلد ، بل يلقح كالطير ويبيض ويفرخ ، قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان) (المستطرف / 402) ، فإذا استبعدنا هذا من قياس التكاثر بين الشياطين على غرار تكاثر الطيور ، والحشرات ، فقد نتصور أن طبيعة إبليس النارية تقبل التكاثر بما يشبه الانقسام ، فيحدث عند احتدام حقده تولد الشرر ، فيكون من كل شرارة شيطان

وليد ، يكبر برعاية أبيه ، ويبقى معه إلى أجله المسمى .

وبذلك يبرز دور الشياطين إلى جانب دور (إبليس) زعيمهم الأكبر ، وأبيهم اللعين ، ليتولوا إضلال المؤمنين عن طريق الاستقامة ، ودفعهم إلى المعاصي ، من الكبائر والصغائر ، فمن الواضح إذاً أن كلمة (إبليس) علم أطلق على ذلك الشيطان الأكبر دون ذريته من الشياطين والمردة ، ولهذا لم يَتَسَمَّ باسمه أحد غيره ، فلم يرد في الاستعمال (إبليس الإنس) ، كما ورد (شياطين الإنس) ، وهم الذين نفخ إبليس في قلوبهم فصاروا له جنداً .

وربما نستطيع أن نتصور واقع العمل بين إبليس وذريته وجنوده من الشياطين ، في ضوء دلالة النصوص القرآنية بحيث يتولى إبليس محاربة بني آدم ليصدهم عن الإسلام ، ويغرقهم في الشرك ، وفي كل ما يؤدي إليه من قول أو عمل ، وتلك مهمة رهيبة تتصل بالمباديء والعقائد والأديان ، على أن يتولى بقية الشياطين مهمات دون ذلك ، في مجال الرزيلة والشر .. كلٌّ حسب اقتداره على الإغواء والإضلال ، وإشاعة الفساد ، فمنهم الذكي والغبي ، والنابه والكسول ، ولسوف نزيد الصورة وضوحاً عند استعراض النصوص الواردة بشأن (الشيطان) .

على أن (إبليس) وصف في القرآن بأنه (شيطان) ، وهو ما يشي به مثلاً .. قوله تعالى في سورة العنكبوت : {{ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ 38 }} - العنكبوت . ، فهذه المهمة الضخمة ، المتمثلة في صرف هؤلاء الكفرة عن الإيمان ، وصدهم عن التوحيد - هي مهمة هائلة لا يقدر عليها سوى (إبليس) ذاته ، الذي وصف بأنه (الشيطان) - هكذا معرفاً بـ (ال) العهدية ، أي : الشيطان الذي تعرفون ، وتذكرون قصته ووعيده ، والموقف هنا مع عاد وثمود - الذين عاشوا في الفترة مابين نوح وإبراهيم .

وأوضح من ذلك دلالة على أن المراد (بالشيطان) هو (إبليس) - قوله تعالى في سورة يس : {{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ 60 وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ 61 }} - يس . ، إننا نستطيع أن نطردها قاعدة في كل شيطان معرف بـــ (ال) ، فهو (إبليس) ، ويعتمد في ذلك أيضاً على دلالة السياق ، فأما إذا جاء اللفظ منكراً فإننا نرجح أن يكون المراد به واحداً من جنس الشياطين

-#- الشيطان في القرآن-#-

ورد ذكر الشيطان في القرآن مفرداً ، وجمعاً في

سياقات توحي باختلاف المعنى المقصود منه . وقد جاء مفرداً في التنزيل المكي ثلاثاً وثلاثين مرة ، وجاء مفرداً في التنزيل المدني ثمانياً وعشرين مرة .

أما وروده جمعاً - فقد جاء في التنزيل المكي خمس عشة مرة ، وفي التنزيل المدني ثلاث مرات .

وقد نستطيع أن نميز بعض وجوه المعنى المراد من خلال ملاحظة ورود الكلمة معرفة أو منكرة - كما سبق أن قلنا ، فإذا جاء معرفاً : (الشيطان) فهو (إبليس) ، وإذا جاء منكراً (شيطان) فهو أحد من جنس الشياطين (من ذرية إبليس) ، وقد جاء اللفظ منكراً (شيطان) فعلاً في خمسة مواضع هي على التوالي بحسب النزول :

* السورة السابعة (التكوير) {{ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ 25 }} - التكوير (مكية) .

* السورة الرابعة والخمسون (الحجر) {{ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ 17 }} - الحجر (مكية) .

* السورة السادسة والخمسون (الصافات) {{ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ 7 }} - الصافات (مكية) .

* السورة الثانية والستون (الزخرف) {{ وَمَن يَعْشُ

عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 36 }}
. (- الزخرف (مكية

السورة الثالثة والتسعون (النساء) {{ إِن يَدْعُونَ مِن *
دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا 117 }} -
. (النساء (مدنية

ويلاحظ أولاً أن الآية في سورة التكوير هي أولى الآيات التي تعرضت لذكر الشيطان في القرآن ، فجاءت به منكراً ، وقد كانت العرب تعرف (الشيطان) ، وتراه في أطياف الشعراء ، فجاء القرآن لينفي أن تكون آياته كأبيات الشعر من طائف الشيطان الذي عرفوه :
{{ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ 25 }} - التكوير (
. (مكية

ونحسب أن وصف الشيطان هنا بأنه (رجيم) هو الجديد في هذه البداية ، لتعريف المخاطبين بأن شأن الشيطان أن يرجم بالحجارة ، وهو ما لم يعرفه أهل الجاهلية ، وكأنه يقول لهم : إن ما يمليه الشيطان على عقل الشاعر لا يحمل هداية ، ولا يدعو إلى خير ، فهو عكس ما يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم : {{ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ 27 لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ 28 }} - التكوير ، وقد صمت الوحي بعد ذلك عن ذكر الشيطان - منكراً ومعرفاً - طيلة ثلاثين سورة - حتى جاء ذكر (إبليس) في سورة (ص) لأول مرة ،

وعرض ذكر (الشيطان) مفرداً بعيداً عن قصة آدم ، أي : في إطار مستقل ، وهو في قوله تعالى : {{ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ 41 }} - ص ، وجاء ذكره جمعاً في قوله تعالى : {{ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ 37 }} - ص ، والآيتان تتحدثان عن أمور تتصل بقصتي نبيين كريمين .. أحدهما : أيوب ، الذي دعا ربه أن يخلصه من وساوس الشيطان أثناء مرضه وابتلائه ، والثاني : سليمان ، الذي سخر الله له الجن والشياطين في أمور تتصل بما وهبه الله من ملك لم يوهب لأحد بعده ، وحين تأتي قصة آدم في آخر سورة (ص) يذكر (إبليس) لأول مرة ، وكأنه لا علاقة له بالشيطان ، فلكل منهما مجاله ، ولكن الوحي ينزل بعد ذلك مباشرة بسورة الأعراف (التاسعة والثلاثين) ، فيجمع بين إبليس والشيطان في قصة آدم ، ويطابق بينهما ، ولو أننا قرأنا الآيات حتى قوله تعالى : {{ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ }} لَشَعَرْنا أن كلمة (الشيطان) في هذا السياق تأتي في موقع الوصف ، أي : ذلك الشرير المجرم ، وملحظ الوصفية هنا أظهر من ملحظ الاسمية .

وحين يتقمص (الإنسان) وظيفة الشيطان ، فإنه يكون أخبث طينة ، وأبشع كيداً ، وأعظم إفساداً من الجن وشياطينهم ، وقد شهد عصرنا أجيالاً من هؤلاء الشياطين .. في شكل مفكرين ، وساسة وحكام ، وأذناب

، وطواغيت و (هلافيت) - إن صح التعبير - وقد جمعوا في ذواتهم صفات الشيطان الجني ، وأضافوا إليها أخبث صفات الإنس ، فكانوا مزيجاً من الشرور المرئية وغير المرئية .

كما شهد عصرنا من فنون هؤلاء الشياطين أهوالاً تزيف صورة الحق ، فإذا هو باطل يخدع العقول ، ويفني الأعمار في متابعته والتعلق به .

نعم : شهد عصرنا ذلك الصراع من أجل احتلال الفضاء ، وشحنه بالموبقات ، ونشر الفجور بكل وسائل الإغراء والاستدراج ، تحت شعارات ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب ، وهي شعارات (مصالح الجماهير) و (خدمة الشعب) و (عولمة الثقافة) ، وغير ذلك من دعاوي الباطل ، ولغات (شياطين الإنس) ، والمضمون الوحيد هو الجنس ، والجنس وحده ، حتى يذهل الإنسان عن غايته ، ويعقد اتصاله بهدفه ، ويبقى مجرد متفرج أبله على ألعاب الشياطين .

أما التقدم ، والحضارة ، والعدالة ، والكرامة ، والقوة ، والدين ، والنصر على العدو ، والإعداد للمواجهة المحتومة - فكل ذلك كلام أجوف ، لا قيمة له ، ولا مضمون .. يكفي أن ننام على أهازيج السلام ، وأن نستسلم لأحلام اليقظة والمنام ، بعيداً عن الحركة

الناشطة ، والعمل الإيجابي ، والبناء الأخلاقي .

إنها مراقص الشيطان ، ونوادي الأبالسة ، وملاعب الجِنَّة ، وقنوات الاتصال بين أعداء الله من الشياطين الملاعين .

انتهى